
www.kotobarabia.com
قصص
سعيد الكفراوي
الغواية
www.kotobarabia.com

البغدادية

قصص

سعيد الكفراوي

فهرس

مثل امرأة مخبولة تهدهد طفلها الميت

"بيسوا"

البغدادية

كنت قد وقعت في الحيرة، عندما همست في أذني السيدة التي تجلس بجانبي متسائلة "أنا أعرفك؟" وحين تأملت وجهها الصغير المسمسم زادت دهشتي، وحيرني الأمر، إلا أنها عادت وأكدت لي بالتأكيد أننا تقابلنا ثم هزت رأسها وأكملت "لكن أين؟ إنها لا تعرف!!". بدا الأمر بالنسبة لي مقلقًا، وأخذت أستعيد الأماكن، والوجوه، ونبرة الصوت التي تبدو مثل رفرفة طائر، ولهجتها الغريبة بعض الشيء، وحاولت بشتى الطرق الوصول إلى ضوء ينير الطريق إليها، إلا أنني لم أفلح.

"المشربية" بقاعاتها الضيقة، وركام الصور المركونة أسفل الجدران، ولغط المثقفين يعلو مجسدًا في حوار حول كتاب الروائي الكبير، الذي أنهى شهادته عن روايته الأخيرة باعتزاز، بقيتُ جالسًا أتطلع بهدوء إلى الصور المعلقة، أخذتني تلك اللوحة التي تشع منها ألوان الأرجوان بدرجاته الموسيقية تحت نور الكشاف الهابط من السقف، كان البورتريه لفتاة جالسة على الكرسي. تشد وسطها بحزام من الجلد تتوسطه تميمة من عقيق أحمر، وتحمل بيدها آنية من

زجاج أزرق تنبت من داخلها وردة بلون الأرجـ ـوان، فيمـ ـا تطل علينا من وجه الصورة عينان غامضتان.

عادت السيدة الغريبة تهمس في أذني "ألم تتذكر بعد؟" ابتسمت لها محاولاً استعادة ملامحها، لعل وعسـ ـى، وحـ ـين فشلت في التذكر قلت لها "إن الأمر ربما يكون حـ ـدث مـ ـن زمان" وسترت خجلي بأن طلبت منها "إن كانت تتذكر هـ ـي فلتخبرني" قالت لي "إنها لا تتذكر، لكنها متأكدة تمامًـ ـا إنـ ـا تقابلنا في مكان ما" أضافت بأنها عراقية، وعادت تسألني "ألا يذكرك ذلك بشيء؟" وصمتتْ مرة أخرى وقد تشابكت يداها، وباشرتْ الإصغاء لما يدور في الندوة من كلام.

اختلستُ النظر، وأخذتُ أمعـ ـن فـ ـي تأمـ ـل وجههـ ـا الصغير، وفمها المزموم، وملامحها كلها كانت تشـ ـي بأنهـ ـا غادرت الشباب من زمان، وبدت لفرط نحولهـ ـا مثـ ـل فتـ ـاة صغيرة طيبة، كانت ملامحها تناوشني، تقترب وتبتعد وكأنها تنبع من ذاكرة مشوشة، وكنت أستعيد زياراتي لبغداد، تلـ ـك المدينة المبجلة.. الشوارع، والنصـ ـب التـ ـذكاري، والحـ ـي الشعبي الأليف، وتلك الوجوه بحزنها المقيم، تمخر الشوارع منكسرة، أتذكر صحبة تلك الأيام، ونحن نسير بالليل علـ ـى

شاطئ دجلة، حيث يكون القمر معلقًا فوق الماء، وذلك الشاعر الذي حيرني صمته يرتل شعره بذلك الإلقاء العميق في الليل، وقريبًا منا قارب يسبح فيما تعلو منه ضحكات نسائية مثل نفحات النسيم.. "أين؟" وأخذت أستدعي الأماكن.. المكتبات، ومعارض الفن، وقاعات الندوات، والمتحف الوطني، وصالة المسرح، وزيارتنا لنينوي حين وقفنا على التل لنشاهد أرض البساتين والنخيل.. "أبدًا لم تكن هناك".. وفجأة صرخت بصوت أثار الانتباه في القاعة "نيرمين" أنتِ السيدة "نيرمين". كنت قد نهضت من غير وعي، حين ذلك ردعني "إبراهيم" "مالك يا جدع.. اهمد".. جلست وقد قبضت على كفها، وذكرتها بأنها عزمتني أنا وبعض الأصدقاء في فيلتها بالضاحية البعيدة عن بغداد. ابتسمتْ، وشع وجهها بالنور، وغمرتْ ملامحها المسرة، وقالت لي "صحيح، وإنها تتذكر الآن كل شيء" عدتُ أرحب بها وقلت لها:

"أهلاً يا ست نيرمين" وأخبرتها بأنني سعيد جدًّا بوجودها بالقاهرة، فابتسمت وربتت على يدي.

حين خرجنا من الندوة كانت الساعة تشرف على العاشرة، اجتزنا شارع قصر النيل، الهواء أقل كثافة منه في

النهار، والسماء تبدو على البعد خالية من النجوم، وصاحية، ومن النهر القريب تهب نسمات حانية قليلة، ترطب جو الليل الذي بدأت تخفت فيه الزحمة، وهوس النهار، اللمبات البرتقالية تفرش أرض الميدان الواسع، وتنير واجهة المتحف الكبير الذي تلوح من حديقته الخارجية كتل الجرانيت المنحوتة برسوم الآلهة والأنداد.

كانت تسير بجانبي بقامتها المتوسطة النحيلة، وشعرها القصير، تنظر ناحيتي بعينيها الخضراوين، وكنتُ منشغلاً بأول لقاء بيننا عندما دعتنا لبيتها المقيم في الضاحية البعيدة عن بغداد، وحين دخلنا من الحديقة ومررنا عبر بوابة رومانية الطراز، كان البناء كبيرًا بضلعيه البارزين الشكل، لكل ضلع شرفة تطل على الحديقة، وينيرها ضوء يكشف عن عرائس مجردة ومزينة بزهور نباتية، حين دخلنا إلى الصالة رأينا ستائر من القطيفة الزرقاء مسدلة على نوافذ عالية، وعلى الجدران صور لبشوات مرسومة، تحيطها أطر من خشب. حين تقدمت منا، أشارت ناحية صور جدودها المعلقة، أدركت وقتها أنها تنتمي لأسرة بغدادية عريقة، وأن

مظاهر الأرستقراطية التي تلوح الآن أمامنا دلالة غنى، وعز قديمين ما تزال آثارهما باقية.

توقفتْ قليلاً عن السير، وقالت لي "إنها تعيش الآن مع أختها الطبيبة في نيويورك منذ عشر سنوات، وإنها غادرت بغداد للإقامة هناك صمتتْ لحظة ثم واصلت "إنها لم تترك بغداد إلا بعد أن ضاقت بها الحال، وإن الأعوام التي أعقبت حرب الخليج كانت أسوأ أعوامها قالت لي أيضًا، إنها في كل أحوالها لم تعانِ الوحدة مثلما عانت تلك السنوات وإنها كانت تبحث عن نفسها فلا تعثر عليها فيما الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، خاصة بعد أن أجبروها على ترك البيت والإقامة في شقة صغيرة من حجرتين داخل المدينة، وقالت لي، إنها كانت تأتي وحدها في الليل إلى بيت أجدادها وتقف بالخارج وتنظر إلى الحديقة والنوافذ وتسمع أصوات الغرباء الذين استولوا عليه وهم يسمرون ويضحكون.

بحركة مفاجئة، مستثارة، حثتْ الخطى، ورأيتها تشوح بيدها أمام وجهها كأنها تطارد صورًا مفزعة، وسمعتها تهمس لنفسها، إنه غاية في الفظاعة أن يرغموك على مغادرة مكان ولدت فيه.

اجتزنا الميدان حتى المسجد الكبير، وعبرنا التمثال اللاتيني القابض على سيفه، وبدا لنا الفندق الخليجي متعدد الأدوار جاثمًا على شاطئ النيل مثل تل من الرمال.

أشارتْ ناحية الفندق الذي تنزل به. كان فندقًا متواضعًا منزويًا بالقرب من انحدار الشارع عند النفق، يواجه وزارة الخارجية القديمة، قالت إنها تقيم هنا، وإنه فندق متواضع السعر، وأصحابه ناس طيبون، وكل نزلائه من الأوربيين تقريبًا.

كنتُ صامتًا أصغي لذلك الرنين الخلوي في الليل، وأتأمل أضواء الجسر البرتقالية القريبة، وأسمع ذلك اللحن الشرقي القديم الذي يصدر من الدور الأول للبيت المجاور، كان اللحن شديد النعومة، وكانت كلماته أليفة وحميمة. بدت مشاعرها فياضة، يشوبها حزن سري تعذر علي فهم أسبابه.

أمام الباب ودعتها، وأخذت كفها بين كفي، وتمنيت لها إقامة طيبة، وقلت لها، إن الإقامة في مصر سوف تسعدها كثيرًا فهي بين أهلها، ووعدتها بأنني سوف أنتظر منها مهاتفة، وأنني سوف أخبر الأصدقاء بوجودها.

اقتربتْ منى بوجهها، ونظرت في عيني وهي ترف بعينها، وقالت لي، إنها سوف تنتظرني غدًا صباحًا، ووعدتها بأنني سوف أمر، ورجوتها ألا تقلق، فابتسمت راضية، وودعتها، ومضيت.

قابلتها في الصباح التالي، جلسنا على النهر في الكازينو جوار الكوبري، تناولنا عصيرًا، وبدت لي هادئة ومطمئنة، وكنت أداوم النظر إليها، كانت غير الأمس ترتدي بلوزة من حرير خفيف منقوشة بزهرات خضراء، وتضع على كتفها شالاً فستقيًّا تبرز من تحته ذراعاها، ويتضوع منها عبير الياسمين.

تكلمنا كثيرًا، وطفنا في كل الأنحاء، أخبرتني بأنها تمارس الرسم الذي درسته في الجامعة، وأنها أقامت معرضين في نيويورك، وأنها تدمن قراءة الشعر، وأنها تعشق ڤاليري وتحبه كشخص لأنها تقدر فيه كرهه للسامية الصهيونية. قالت، إنها تحب القراءة جدًّا وهي مفتونة بتشيكوف الروسي الذي أمضى طوال عمره يعتصر من عروقه دماء العبودية، وأخرج لنا ذلك الأدب الرفيع، كانت الشمس في الضحى برتقالية دافئة، وعلى أرض الممر ظلال

الأشجار وبعض عصافير الصباح تتقافز في المكان وسرعان ما تحلق نحو الذيل.

غادرنا الكازينو وتوجهنا إلى الفندق المجاور، ودخلنا من بابه الزجاجي، كانت لم تتناول فطورها بعد، وحين ولجنا من صالة الفندق رأيت تلك الكتلة الحجرية التي ينساب على سطحها الماء، ويتسلق على جدرانها نباتات كثيفة الخضرة، تناهى إلينا عزف بيانو لم أستطع للوهلة الأولى معرفة صاحبه، أخبرتني أنه فيفالدي، وأن المعزوفة كونشرتو للبيانو كتبها وهو صغير. توقفتْ بالقرب من الحاجز الزجاجي الذي نطل من خلاله على النهر، ونظرتْ للمشهد الرائع لنهاية الجزيرة، وبدتْ أمامها المدينة مثل عروس. قالت لي بامتنان، أنت لا تستطيع أن تشاهد مثل هذا المشهد في غير مصر. كان البار على الجانب الأيمن، وكان يجلس عليه زبائن من الأجانب، ويتبادلون الحديث والضحكات بحرية استفزتها. قالت لي إنهم أمريكيون، ثم أعقبت، إنك لا تستطيع أن تضحك هكذا في أمريكا. اقتربتْ قليلاً من الحاجز الزجاجي وظلت تمعن النظر شاردة. شعرت بحزنها المفاجئ الذي انتقل لي وانتزعني من صخب الأجانب على البار،

استدارت ناحيتي وفتحت حقيبة يدها وأخرجت منديلاً مسحت به عينها، وقالت لي، إنها تعيش في أمريكا وحيدة جدًّا وإنها في كل الأحيان لا تجد هناك من تحادثه، وإنها طول النهار تطل من شرفة الشقة وتنظر إلى الشارع الذي يلفظ كل نهار أخلاطًا من البشر يسرعون مثل القطيع، وإنها تذهب أيام الجمع إلى مسجد نيويورك لتلتقي بأمثالها من العرب حتى تتمكن من التحدث معهم، والإصغاء لصوت الكلام الذي يشحب تمامًا في هذه المدينة التي لا تعرف الرحمة، صمتتْ قليلاً وأحسست أنها تعاني ألمًا ثم نظرت لي مؤكدة، هذه بلاد سوف تعاني في المستقبل من عبودية مطلقة.

جلسنا على طاولة في الجانب الذي يشرف على النهر، أخبرتني أن جارها الأمريكاني العجوز يعمل عازفًا في ملهى ليلي، وأنه يعزف على آلة الكمان، وأنه رجل عجوز بدرجة تثير الشفقة، وأنها كثيرًا ما تراه جالسًا آخر الليل وحده على مقعد خالٍ بحديقة مجاورة، وأنها تراه في كثير من الأحيان يتحدث إلى نفسه. قالت لي، تصور!! كل ليلة يتحدث إلى نفسه. رجعتْ بظهرها وقالت لي إنه يصعب عليها كثيرًا، وبالرغم من أحواله إلا أنه يرفض الحديث لغير الأمريكيين.

قالت لي، إنها سألته يومًا ما الذي يجعله يجلس وحيدًا هكذا في الليل، فأجابها أن زوجته الشابة تطرده من البيت عندما يكون عندها صديقها، وتشخط فيه أنه جاء مبكرًا جدًّا، قالت لي، إنها كانت تراه في أحيان كثيرة ينسحب في الممر المضاء بذلك النور الخافت، وكانت تراه يلطم فخذيه بكفه، وتسمعه يحادث نفسه بأن الأمور لم تعد محتملة، وأن الإحساس بالزمن يهلكه مع زوجة شابة تتعامل معه باعتباره ميت. قالت إنه قال لها مرة، إن هذه المدينة تجمع بين أشلائها الكثير من الموتى على شاكلتي.

في اليوم التالي صحبتها إلى قريتي القريبة، وكنت أراها سعيدة بهذه الزيارة وبما تراه رأي العين. كانت بيوت الطين، والأزقة الضيقة، وجلوسها مع القرويات من أهلي وفرحتهن بلهجتها الغريبة عليهن، والهدايا التي قدمتها إلى الأطفال الذين زاطوا فرحين مغادرين البيت، كانت المشاهد تعيد إلى روحها الألفة، وشعرتُ أنا كم كانت مطمئنة، أدركت أنها تعطي لنفسها فسحة من الوقت لتأمل ما تراه. كان مزيجًا من الحنو والشوق إلى أماكن افتقدتها أشارت بيدها عبر النهر، ناحية حقول الحنطة، وقالت لي، إن جدها

كان له حقل مثل هذا. واسع لا ينتهي، وكانت تراه في نيسان مساحة من الذهب، وإنها كانت وهي صغيرة تقطف السنبلات وتذروها في الريح، وإنها كانت ترى الطيور المهاجرة تصعد إلى السماء ناحية الشمال، وكان غناء الفلاحين بالمقام العراقي يأتيها محملاً بالشجن والحزن. قالت إنها كانت تقف على تلة عالية بالقرب من جدول الماء وترى على البعد المزارات الشريفة في حين يسقط عليها الشعاع. قالت إنها لا تنسى هذا المشهد أبدًا، وإنه كثيرًا ما يأتيها في الحلم، اقتربتْ مني وسألتني، ما الذي يجعلنا نحلم بأشياء حرمنا دائمًا من رؤيتها؟.. قالت إنها لن تنسى أبدًا في حقل جدها تلك النخلة التي يقولون عنها إن عمرها مئات السنين، وإنها كانت النخلة الوحيدة في الحقل التي تصدر صوتًا مثل الموسيقى عندما يرتجف زعفها بالريح. مسحت عينيها وعادت تقول، إنها تشعر الآن بنفس إحساسها القديم، وتحس أنها هناك في أرض النجف الأشرف.

في العودة مررنا على مقابر القرية. طلبت مني أن أقف قليلاً، نزلتْ من السيارة وخطت ناحية المقابر الجاثمة هناك في أبدية الموت. رأيتها تضع على رأسها شالاً أخرجته

من حقيبتها، تقترب من شاهد مقبرة وتقف أمامه تقرأ الفاتحة وتفرد كفيها بالدعوات. كانت تنظر ناحية الشمس الغاربـ ـة، وهي تتمتم بالدعوات، خيّل إليّ كأنها مثل شخص يعيش أكثر من ذكرى في وقت واحد، مثلها مثل مـ ـن يطـ ـارد أطيافاً ـا انقضت، وتستعيد ذكريات من غابوا عنها. عادت إلى السيارة وحين اقتربتْ مني عادت تنظر ناحيـ ـة المقـ ـابر، وسـ ـمعتها تهمس لنفسها، مأساة ألا يعرف الإنسان مكـ ـان موتـ ـه، ثـ ـم أردفت، لقد حالت الظروف بينها وبين ما تريد أن تعيشه.

ظلتْ طوال الطريق صامتة، ورأيتها تتنـ ـاول بعـ ـض الحبوب، لعلها دواء للاكتئاب المفاجئ الذي يصـ ـاحبه ذلـ ـك القلق، وتلك الحالات من العصاب النفسي.

سألتها، مالها؟ أجابتني، لا شيء، احترمـ ـتُ صـ ـمتها، وضاعفت من السرعة وأنا خائف من مجيء الليل.

هبطنا من السيارة أمام الفندق. ودعتها لكنها اقتربـ ـت مني وطلبت ألا آُخذها فالأمور خارجة عن إرادتها، وعندما استدارت تصعد درجات الفندق الخارجيـ ـة وجـ ـدتها تسـ ـتند لحائط المدخل بيد، وتقبض بالأخرى على صـ ـدرها ناحيـ ـة القلب. أسرعتُ ناحيتها وأخذت بذراعها، وسألتها عن الأمر.

أجابتني بأن لا أخاف، هي أشياء متعودة عليها، ثم قالت لي بعد أن لقفت أنفاسها، إنها تشكو داءً عليلاً بالقلب.

فوجئت، ودخلت معها حتى الاستقبال، أخبرتني أنها أصبحت في حالة طيبة، وأنها نوبات تأتي وتذهب. أخذتْ مفتاح حجرتها، وقبل أن تغادر المكان شكرتني وطلبت مني بأن لا أنساها، وغابت في الممر شحيح الضوء.

لا أعرف لماذا تراقصت أمام عيني حروف الشاشة الحمراء المضاءة، وتحولت حروفها إلى ما يشبه غلالة ضبابية من النور، وأثناء رجفة الضوء أمام عيني أحسست برجفة في قلبي.

تقدمتُ من موظف الاستقبال وأعطيته رقم تليفوني، وعنوان البيت، ونبهت عليه بالاتصال بي فورًا في حالة حدوث أي أمر، وغادرت المكان.

كالعادة، في كل مرة، وعبر سنوات من العمر، أنهض فزعًا على الرنين المتصل لجرس الهاتف. صلصلة في الظلام تثير الريب، والنهار لم يسفر بعد، وأنا مغيّب في نوم ثقيل قلق، تنهض مفزوعًا بقلقك، مكروش النفس مثل عطشان يطارد الماء، وبداخلك لهفة، تود ألا تتحقق هواجسك، قلقك

مثل جرح. رفعتُ السماعة فجاءني الصوت وقد شله رعب المفاجأة مستدعيًا إياي: الست نيرمين تعيش أنت.

كالعادة في رحيل رفاقي. أدور في الحجرة مثل البهاليل ناخذاً نفسي بالصوت، والموت لا يكفر عن شيء، حضوره مثل جريان الدم في الشرايين، مثل الغريزة، مثل الحيرة والبحث عن معنى الحياة والموت، نقطعه كنهاية آخرها سؤال منقوش على جبهة مقبرة قديمة أنهكها البلى، وفوات السنين.

استقبلني في الفندق عدد من النزلاء والموظفين، قالوا لي: إنها استدعتهم في الفجر وكانت متألمة وحزينة لكنها بعد قليل أسلمت الروح. قالوا: إنها لم تقل شيئًا لكنها ذكرت اسمك وقبل أن تغلق عينيها قالت بإنك رجل طيب.

فرت الدمعة من عيني عندما كنت أدخل حجرتها، كانت ممددة على السرير، تغطيها ملاءة. كشفتُ وجهها وكان ينطوي على ألم محزن. لا أعرف لماذا فكرتُ الآن في أنها أخيرًا امتلكت حريتها، وأنها نفضت عن جسدها ألم المرض وإحساسها بالاغتراب، كانت وحيدة وغير آمنة، وأنا أنظر

أشياءها المرتبة في أنحاء الغرفة، وتلك الزهور في الفازة القريبة من النافذة.

ما الذي أستطيع أن أفعله الآن؟ وجدتني أسأل نفسي، ولما لم أعثر على إجابة توجهت إلى مدير الفندق الذي عاجلني بالسؤال نفسه: ما الذي نفعله الآن؟. قال موظف الاستقبال: لابد من الإبلاغ، ولابد من الكشف الطبي حتى يمكن استخراج التصريح بالدفن.

حين سمعتُ مفردة الدفن، نهضت واقفًا، وقد ضربت الهواء بيدي، وسرتُ حتى النافذة ونظرت إلى الجسر، كانت حركة المرور في الصباح قليلة، وشاهدتُ على البعد، منتصف الجسر تقريبًا ذلك الضرير يضرب حديد سور الجسر بعكازه ويمشي متحسسًا الهواء بيده الأخرى في ذلك البكور المعتم.

كررت على نفسي "الدفن" أكثر من مرة، وقلتُ، ويلٌ للغريب. سألت مدير الفندق مرة أخرى، ما الذي أفعله الآن؟ لا أهل هنا ولا أصدقاء، قال الرجل نتصل بسفارتها، قلت، إنني لا أعرف حتى الآن إن كانت عراقية أم إنها أمريكية؟.. لقد أخبرتني أنها تقدمت بأوراق الجنسية، وقالت إنهم

أخبروها بالموافقة لكن القرار لم يصدر بعد. قال لي الرجال نتصل بالسفارة العراقية فإن رفضوا نتصل بالأمريكية فإن، وافقوا خير وبركة، وكلها بلاد الله اذهب للسفارة العراقية أولاً ربما يوافقون على نقلها لبغداد. قال لي بأن أحاول فإن إكرام الميت دفنه. أوصيتهم بالإبلاغ، وإحضار الطبيب، واستخراج التصريح، والانتهاء من الإجراءات، ونقلها للقصر العيني حتى أعود. تركت لهم مالاً يكفي الأمر، وخرجت.

كانت الساعة الثامنة عندما دخلت من باب السفارة العراقية بالزمالك، وصعدتُ الدرجات الخارجية للمبنى، كان الباب موصدًا، وعندما ضغطت على جرس الباب الخارجي انفجر صوت آلي مفاجئًا، وانفتح الباب. استقبلني موظف الاستقبال الطويل العريض مثل جنود الحرس. كانت ملامحه بدوية، وعينه سوداء واسعة وله شارب مثل شارب صدام حسين وله شكله تقريبًا. سألني بذلك الهدوء المريب عما أريده، وعندما أخبرته بالأمر استأذنني لحظة وغادرني متوجهًا إلى الداخل. لحظات، وصحبني إلى حجرة واسعة يجلس بها أحد المسئولين الكبار الذي أشار لي بالجلوس.. أيضًا شكل صدام حسين.. تأملت اتساع الحجرة، وصورًا من

العراق على الجدران، والرئيس المهيب يرتدي لباس الفارس ويمتطي جواده الأشهب متأهبًا للفتوح، مشيرًا بذراعه التي تحمل السيف اليماني مبتهجًا، تملأ بسمته أنحاء الصورة، تنهدت مقاومًا حزني ودهشتي.

قال لي الرجل، خيرًا؟، أخبرته بكل التفاصيل، وطلبت توفير الإمكانية لسفرها إلى بغداد، وطن أهلها، لدفنها هناك.

تحسس شاربه الكثيف وتابع ضرب سطح المكتب بقلم في يده. كان هادئًا إلى حد مريع، وكنت قلقًا وأنتظر إجابته، سجل ما أخبرته به في ورقة أمامه، ثم رفع رأسه ونظر ناحيتي وسألني، أليست أمريكية؟ قلت له إنني غير متأكد من هذا الأمر، كل الذي أعرفه أنها أمضت عمرها كله بالعراق وقلت أيضًا، إنه من حقها أن تدفن في أرض أهلها. قال لي إنني عليّ أن أعرف مشقة السفر إلى العراق، وأن الأمر في غاية الصعوبة في ظل عراق محاصر، ونبهني إلى أنها سوف تسافر بالطائرة حتى الأردن، ومن هناك تقطع الطريق البري في أيام. سألته بانفعال عما يراه الآن؟.. اقترح عليّ بهدوئه، أنها من الممكن أن تدفن هنا، ثم قال لي يا أخي كلها

بلاد المسلمين، ثم نهض ومدّ لي يده مسلمًا وعلى وجهه نفس الابتسامة التي رأيته بها عندما دخلت.

لعنتُ المسلمين، والعرب، وكل البشر في هذه الدنيا، وأنا أغادر السفارة قاطعًا كوبري "مايو" هابطًا شارع الكورنيش، وسرعان ما كنت في جاردن ستي. ركنتُ السيارة في شارع جانبي بجوار دار المناسبات، واتجهتُ ناحية الفندق، كانوا قد استدعوا الطبيب الشرعي الذي وقّع الكشف الطبي، وكتب تقريره: بأن الوفاة بسبب أزمة قلبية، وغادر الفندق وبصحبته أحد العاملين لإحضار التصريح. أكدت على المدير لينقلها للقصر العيني لحين عودتي من السفارة الأمريكية، وغادرت المكان سائرًا على قدمي حتى السفارة القريبة من الفندق.

سفارة أمريكا أمامي مثل قلعة محاصرة بأسوارها العالية، وأطقم الحراسات تحيطها من كل جانب. شعرتُ بالتوتر، وسمعت صوت خطواتي على إسفلت الطريق. حين وقفت أمام البوابة الحديد السوداء تقدم مني الحارس الطويل الذي شعرت بوطأة أنفاسه، إلا أنني نصبت طولي ونظرت إليه فسألني: خيرًا؟ أخبرته بالأمر، وأن سيدة أمريكية توفيت

بالأمس، وأنني أود مقابلة المسئول. استمع إليّ باهتمام، وكان يحدجني بعينه الثابتة، الزرقاء مثل ماء البحر، وأشار لي ناحية حجرة صغيرة خلف الباب يجلس بها موظف مصري أسمر الوجه عابسًا، حين أخبرته بسبب تشريفي رفع السماعة وتكلم بالإنجليزية. دقائق وانفتح الباب ومرقت من جهاز التفتيش، وسرعان ما كنت في ذلك الفناء الواسع. يجثم البناء وسطه بواجهته المرتفعة، وطوابقه المتعددة. بدا لي البناء مثل القلاع القديمة التي كنت أقرأ عنها في كتب المغامرات، وأمواج البحر تلطمها، وهي جاثمة هناك في الليل عند آخر حدود الأوطان، شعرت بألم مفاجئ في ركبتي، وبخطوط من العرق تضرب سلسلة ظهري إلا أنني واصلت صعود الدرجات الخارجية للمبنى. قابلني أمام الباب شخص يرتدي لباسًا أزرق، خلع قفازه وأشار لي أن أتبعه، دخلنا من الباب إلى ممر طويل كأنه نفق في جبل، مضاء بإضاءة خفية لا أعرف مصدر سطوعها، فوقه سقف عالٍ ينفذ منه ضوء النهار المعتم ويشمله ذلك الصمت المريب.

طرق باب حجرة تقع على الممر ودخل، وبعد لحظة استدعوني فدخلت، كانت غرفة السكرتيرة، أمامها جهاز

كمبيوتر. عدد من الهواتف الموضوعة بجوارها على ترابيزة صغيرة، أمريكية شقراء، في منتصف العمر، تضع على عينيها نظارة بيضاء وتبتسم كاشفة عن أسنان اصطناعية كبيرة تميل إلى الزرقاء قليلاً، ماعتْ نفسي، وشعرتُ بالبرد ينفذ من السقوف والأركان وأنا جالس أنشغل بما أنا فيه، انشغلت لحظة بجهاز التليفزيون أمامها، كان البرنامج عن عالم الحيوان الأفريقي، وكانت عِجلة صغيرة تحاول عبور النهر إلا أن تمساحًا مهولاً يأتي متسللاً تحت الماء ويقبض على حافرها ويجرها إلى العمق البعيد، وكانت العجلة تفلفص محاولة الفكاك إلا أن كلابات الفك كانت تشدها إلى أسفل، وسرعان ما انفجر الدم في الماء، وصوت القضم يشيع في الجو حالة من الافتراس.

لم أنتبه عندما طلبتْ مني السكرتيرة الدخول إلى الحجرة مغلقة الباب. عندما دخلت كان المسئول الكبير يجلس على المكتب. كان أمريكيًّا أصلع الرأس، وعيناه واسعتان زرقاوان، وله فم مثل أفواه الأرانب، تبرز كفه من كم جاكتته بأصابع نحيلة مثل أصابع الموتى، وجلده ناعم وخالٍ من الشعر، وله رائحة مثل رائحة احتراق غاز الفريون.

أشار لي بالجلوس، ولمحتْ عيني على الحائط بعض صور رؤساء أمريكا السابقين، وصورة للبيت الرئاسي، وتمثال الحرية له المجد. ورأيت خزانة من الكتب خلفه بها عدد من المعاجم والموسوعات المصورة وكتب الجغرافيا، وبعض فهارس الأسماء، وصور فرعونية لبعض الأماكن في مصر. بدا لي المكتب أمامه مثل طاولة لإجراء الجراحات بأدوات وأجهزة متنوعة تستقر فوق سطحه.

كان ينشغل بأوراق أمامه، وأنا تستفزني حالة العجلة في فم التمساح، وحالة اللامبالاة التي يعاملني بها هؤلاء القوم. خلع نظارته واصطنع ابتسامة واجهني بها. أسبل عينيه وحاول خلق جو من المرح ثم نظر تجاهي وأخذ يدور على نفسه بكرسيه الدوّار الأسود. قال:

- أهلاً.
- أهلين.

ابتسم، من سرعة إجابتي، وتقدم من المكتب واضعًا يده على سطحه:

- أعتقد أن الطقس مقبول اليوم. مصر في الخريف تحفة. ألست معي؟

- فعلاً.
- صحارى مصر الآن فاتنة.
- أنا في الواقع لم أذهب إلى الصحراء أبدًا.

صمت لحظة، ثم سألني:

- أعرف الاسم والعنوان من فضلك؟

أخبرته باسمي وعنواني فسجلهما في دفتر أمامه.

- تقول سيدة أمريكية ماتت؟.
- نعم.
- ميتة طبيعية؟.
- بالفعل.. أزمة قلبية.
- هل أنت متأكد من الأمر.. أعني هل هي ميتة طبيعية بالفعل؟.
- هناك تقرير الطبيب الشرعي الذي أمر باستخراج تصريح الدفن.
- طبيب مصري؟.
- طبيب الحكومة المسئول.
- لكن علينا نحن، وكما تعرف، مراجعة الأمر بأنفسنا.. إنها سيدة أمريكية.

صمت لحظة، ثم عاد وسألني:

- هل تعرفها من مدة؟.
- رأيتها من أيام، لكنها صديقة عزيزة تعرفت عليها في بغداد.
- بغداد؟.

قالها مستنكرًا، ودفع جسده إلى ظهر الكرسي.

- نعم.. هي عراقية الأصل تعيش في أمريكا منذ عشرة أعوام.
- وما الذي تريد أن نفعله لها؟..
- تنقلها السفارة حيث تعيش أختها في أمريكا، وأعتقد أن هذا هو الأصوب.
- هل هي أمريكية؟.
- أخبرتني أنها تقدمت بأوراق الحصول على الجنسية وأنهم وافقوا على منحها إياها.
- هل حصلت عليها؟.
- أنا لا أعرف إن كانت حصلت عليها أم لا.
- قل لي ما اسمها؟.
- نيرمين فتح الله العربي.

فتح الجهاز أمامه فانفجر صوت خفيض في هدوء الحجرة، وضرب مفاتيح الجهاز ضربات متتابعة منتظرًا لحظة، ورأيته يقرأ على الشاشة أمامه بصوت وصلني، ولم يكن يرفع رأسه. قال لي:

- بالفعل هم وافقوا على منحها الجنسية، لكن لم يصدر القرار بعد.
- والعمل؟.
- هي إذن ما تزال عراقية.
- لكنهم وافقوا هناك على منحها الجنسية؟.
- في الواقع نعم.
- إذن هي أمريكية.
- لا. لا. فقط على ورق لم يصدر.. هي ما تزال عراقية.
- والحل؟.
- في هذه الحالة أنا لا أستطيع أن أفعل لها شيئًا.
- عشرة أعوام تقيم في أمريكا ولا تستطيع أن تفعل لها شيئًا؟.

- يا سيدي الأمريكي أمريكي، والعراقي عراقي، وأنا لا أفعل شيئًا إلا للأمريكيين.

حسم الأمر، ولمحت ابتسامة لا مبالية ترتسم على وجهه، ثم عاد ليقول لي:

- الأفضل أن تواروها التراب هنا يا رجل.

نهض واقفًا فانفتح الباب، ورأيت الرجل الذي جاء بي يقف في المواجهة، تبعته في الممر الطويل إلى أن انحرف إلى ممر طويل آخر ثم أشار لي على طريق الخروج، ثم تركني ومضى.

من خلف دائرة الضوء التي تسطع من السقف على الممر العتيق البارد أحسست أنني غير موجود، وربما تائه في ليل مدينة لا أعرفها، أو أنني في إحدى متاهات بورخيس حيث تبدأ وتنتهي في نفس المكان، كأنني أخرج عن وجودي المتعين إلى عالم نسجه كافكا يومًا ومضى لم أعد بقادر على مقاومة تلك الصور السرية التي يفرزها عقلي، وربما خيال من أمضى مثل هذا اليوم الملتبس، وتلك الأشباح العصبية التي تخرج من رأسي إلى المكان وتعود مرة أخرى إلى رأسي بصور أخرى جديدة، كرنفال من تواريخ، واستدعاء

لعلاقات سرية أحيانًا، ومعلنة أحيانًا لذلك التتبع الذي لا ينتهي لتواريخ الكهنة، وصناع الأخيلة العصابية في زمن لم يعد يثير انتباهة الماضي. فقدتُ القدرة على مغادرة ما أنا فيه، وكل تلك الوجوه الحمراء ترقبني من خلف الزجاج وأنا ضائع تمامًا في المساحة الخافتة بين النور والظلام، وأنا أعافر للحصول على رحمة للميتة من أقبية هذا المكان الذي لا يعرف الخير، وأخذت أتنفس رائحة مثل رائحة البول، وكنت أبعدها بإصرار عن أنفي وأتشبث بالصور التي تأتيني من غير رابط وبإصرار منقطع النظير. الكاوبوي العجوز، على رأسه قبعة اللباد الصفراء، ومسدسيه معلقين في وسطه بحزام من الجلد في حجم سير الطاحونة، والرِّكَاب النحاس اللامع بمهمازيه اللذين نخس بهما جنب الجواد فانطلق في صحراء نيفادا غير العامرة مستدعيًا رفاقه البعيدين عبر بحر الظلمات فجاءوا إلى الأرض محملين بخطاياهم الإنجيلية والتلمودية ليحققوا وصايا الرب الورع الذي يضعون تحت قدميه هدايا الكريسماس وأغاني مايكل جاكسون وأشعار فيرلنجيتي وروايات أوستر والنصوص غير المقدسة لسول بيلو وحقول الحنطة بالغة الشساعة التي يجملها وجه هيدرا

وعجلات الجر على طرق الشمال والجنوب، والأفنية المعتمدة التي تتلى فيها الوصايا العشر التي تحض على الزنا بالمحارم وتوصي بقتل الأخ والارتواء من دمه حتى الثمالة، وعمائر الشارع السادس التي بناها الزنوج المجلوبين من آخر الدنيا، وبنوك الرهن والمضاربة وسطوة الصيارفة من أتباع موسى النبي، وقبض أصحاب الشركات الذين تمرسوا على أناشيد الكنيسة الأصولية يوم الأحد حيث خطوط لوسيان فرويد على الأسقف تجسد اللحم المتفسخ، ودروس التربية الأولى التي تحض على التعصب وكراهية الآخر غير المتعافي من وطأة التاريخ القديم والحضارات البائدة التي كانت على البحر ومضت مع ريح السموم والمحاصرة بحروب النهب المنظم ومصادرة أرزاق الفطرة الأولى التي تدرس أضدادها بانتظام مبرمج في جامعة سان كوليج وهارفارد وبقية المعاهدة السرية ذات الطقوس اليهودية لإعداد القادة الذين سوف يديرون العالم في قادم الأيام حيث يدمنون قراءة التلمود والصحف المؤجرة القادرين على سلخ جلود الآخرين واتهامهم بالفحش والكراهية والحسد وفضحهم تحت صلصلة أجراس الكاتدرائيات الرومانية الكاثوليكية

واليونانية الأرثوذكسية والروسية والمعابد ذات النجوم السداسية حيث ترتل التعليم في الردهات شحيحة الضوء ليتم طبخ الجرائم وتجارب العلم لمسخ صورة الإنسان الإلهية في احتفالات يراق فيها شراب الويسكي الأسكتلندي والفودكا الروسية والساكي الياباني والنبيذ البورجندي وتؤكل الأفخاذ المشوية في أفران الغاز على نار أوراق مبدأ ترومان وصور العبودية التليدة لمشروع مارشال وأسرار .C.I.A وصورة الإله الجديد جالسًا على العرش بوجهه الغاضب وقبعته العالية، تحيط به الأنثى الفاجرة في شرائط البورنو وتخرج من بين يديه الصور الملونة بالفحش والرذيلة.

عندما انتبهتُ لاح لي باب الخروج مثل شراع سفينة فأسرعت من خطاي نحو الشارع باحثًا عن نسمة هواء.

جلستُ على مقهى جانبي بشارع قصر العيني. طلبت قهوة وأشعلت سيجارة. كنت أسيرًا ومتوترًا ومأخوذًا بما رأيته أمامي مجسدًا مثل شاشة العرض. عدت أنشغل بما أنا فيه، وبدا لي الأمر قدريًّا وعلى نحو غريب. ما الذي سأفعله الآن؟ سألت نفسي. كيف سأتصرف فيما حدث وأنا وحدي في هذه المدينة الكبيرة؟. قلت: أخبر بعض الأصدقاء. لكن

ماذا يفعل لي هؤلاء وسط انشغالاتهم اليومية التي لا تنتهي؟ عدت أنشغل بأسئلة لم أصل لإجابات عنها.

هل الموت راحة لهؤلاء المتعبين في أرواحهم؟ وصعبتْ عليّ نيرمين التي وافتها منيتها وحيدة. عزت على نفسي الأوطان، والرحيل إلى البلاد الغريبة، تخيلتها الآن مسجاة في مشرحة القصر وقد غسلوها وكفنوها، منتظرين من يواريها التراب.

فجأة، وعلى غير انتظار، مثل لمعة من ضوء خاطفة، أو الانتباه للشيء المفقود من سنين، وجدتني أصرخ بصوت مسموع: لماذا لا أدفنها في قريتي؟ قريتي هي الملاذ. ولاحت لي بيوت الطين، والأزقة التي لا تفضي لشيء. والناس البررة بطبيعتهم، هؤلاء الذين يقتاتون على المحبة مثل لقيمات الخبز في قيعان الدور وعلى شطآن الترع.

نهضتُ مغادرًا. طلبت أخي في الهاتف وأخبرته بالأمر، وقلت له إنني سوف أحضر مع الفقيدة لدفنها في مقبرة العائلة.. قلت له، إن عليه أن يجهز نفسه لأنني بعد ساعات سأكون عنده.

كان النهار قد غادر منتصفه، وشمس الخريف تميل ناحية المغارب لينة وباردة بعض الشيء. كانت السيارة البيجو تدرج على الطريق الزراعي. تعجبت من تغير الأحوال، واختلاف المصائر، وتذكرت وقفتها أمام المقبرة في البلد وتناهى لي صوتها، لا تعرف نفس بأي أرض تموت.

بكيت بيني وبين نفسي، وإحساس من الأسى يغمر روحي لحال الإنسان ومصيره.

حين وصلنا القرية رُوّعت بما أرى.

كانت القرية عن بكرة أبيها قد خرجت إلى جسر النهر، عمائم وطواقي وتلافيح وطرح سوداء تخفق مثل رايات حزينة، وجمع من الفقهاء يرتلون سور القرآن في نشيد ممدود من المهد إلى اللحد. يخرج الفقراء من دورهم لاستقبال الغريبة، وشعرتُ لحظة كأنها خرجت من بين هؤلاء. تأكدت أنني لم أكن وحيدًا وكذلك هي لم تكن وحيدة، وأن العالم ما يزال عامرًا بالخير، ورأيت يومًا من أيام الحشر يحمل في شفقه ضوء شمس غاربة، وصوت هؤلاء يكبرون ويرتلون القرآن.

انتظم صف الجنازة، يسبقها القراء، وأنا أسير بجانب
نعش الغريبة في الطريق إلى دارها الخالدة.

ساعات فرجينيا الأخيرة

كانت تخرج من الباب إلى الحديقة المزهرة، مصارعة وجودها المكثف في ريتشمون، كانت ترتدي معطفها الرمادي، على فستان من القطيفة الزرقاء وتلم شعرها في حزمة خلف ظهرها، وتشرد عينها إلى بعيد، بنظرة زائغة مثل باحث عن شيء ضاع منه، ثم تضغط على شفتها في ألم.

هي متأكدة أنها ستجن، لذلك عندما نظرت إلى زهرات المانجوليا الحمراء همست لنفسها أن عليها أن تقتل شخصًا آخر.

صرخت مثل حيوان حبيس حين رأت زوجها المحب يرجوها باستعطاف ذليل أن يعود بها.

كان القطار يغادر المحطة، وصلصلة الجرس تروّع الهدوء الذي يحاصر المكان. ثمة عائدون من لندن يغادرون المحطة، يتوحدون في ملابسهم التي تشبه ملابس الحداد.

حين صرخت فرجينيا "إنني أموت هنا، إن هذا المكان يقتلني"، لم يجد الزوج مِن فعل يمارسه إلا أن يربت على ظهرها، آخذًا بيدها نحو كابوسها المروع "سوف تتحسن

الأمور، وهنا أفضل من لندن لأشخاص يعانون من الألم".. كان حزيناً من أجل فرجينيا، وكان لا يعرف ما هو الشيء الذي يؤلمها.

عادت الأصوات إليها حين جلست تحت ظل الشجرة.. كانت تلك الأصوات تخصها وحدها، تنبع من دمها هي، ذلك لأنها ومن قديم تمارس جحيمها الذي منحته روحها كل عاطفة. قالت: إنه لا بديل من قتل شخص آخر".

بدت في صمتها وهي جالسة على المقعد الخشبي في حديقة المنزل، وحيدة الروح إلى الحد الذي جعلها تتشبث بأحلامها القديمة وممعنة الإصغاء لتلك الأصوات التي تنبثق مع الضوء فيتردد بداخلها ذلك الرنين الذي يأتي من عند قوس الباب الذي يطل على الهاوية. تود فرجينيا النفاذ من أفق الرصاص المحاصر لتهرب من أبديتها التي تستدعيها في كل يوم.. ضربات البيانو الصاعدة بعزف "فيليب جلاس" وسطوة نغم الكونشرتو الحزين الذي يجلل مشهدها اليومي بتلك الشفافية التي تعكس في روحها جريان النهر نحو أبديته.

لم تستطع أبدًا، وعبر سنوات من وحدتها أن تدفع عن نفسها إحساسها الدائم بأنها جُذ ت، وتع يش الآن اخ تلاط حياتها.. تلك الطفولة على عشب لندن، والمكوث على البحر مع أختها، وتجلي شمس المغيب على الموج. لم تعد ق ادرة على مقاومة صوت داخلها الذي تجيبه كل يوم "لقد منحتن ي كل السعادة الممكنة"، وعادت تضغط شفتها بقس وة ن اظرة تلال الضوء الذي ينير الزهرات.

حين كانت تهبط سلم البيت ال داخلي متأمل ة الكت ب المبعثرة، والكراسي المنزوية في الأركان، وتصغي بإمع ان لصوت الموسيقى المنبعث من الجرامفون الموضوع بالقرب من النافذة، وترى خادمات البيت يقطع ن اللح م بض ربات السكاكين الحادة، وتسمعهن يهمسن عن جنونها.. قالت له ن إن البلد التي تبيع التوابل بعيدة كأنها آخ ر ب لاد الحل م.. صمتن، ولم يجبن عليها، ونظرن ناحيتها بنظرة المحب ين.. ابتسمت من أن فزعها الدائم شيء طبيعي لمثل من في حالتها وربما كان جزءًا من القانون الأزلي للطبيعة، وأنه، وعل ى نحو لا تستطيع التحكم فيه، ينبع م ن وعيه ا ب أن الحي اة والموت شيء واحد.. صمتت، وفكرت، لقد خانتها الظروف،

وتلك الصور التي دائمًا ما تجسدها الكلمات، وسحبتها من حياتها التي كانت تتسم بالألفة إلى ذلك العالم المحتشد بالجنون.

عادت تكرر بين نفسها "عليّ أن أنجز يوم هذه السيدة التي تود إقامة حفلها المريع". نفرت فيزيقيًّا، واضطرب رأسها، إلا أنها عادت تحادث نفسها بصوتها الهامس "إنها الساعات التي عشتها ومضت حاملة الحنين، وكلمات ذلك الكتاب الغامض".

فردت رجلها على الأرض المعشبة، وبدت كأنها في غفوة، وهي تستند برأسها على جذع الشجرة. رفعت رأسها وألقت بها على حاجز المقعد الخشبي. تذكرت أنها كانت قد قالت لزوجها: إنها عثرت على الجملة الأولى لكتابها الملتبس".

وسمعت نفسها تهمس: إنها لا تعرف أين تذهب بها الكتابة؟ لحظتها أعطاها الزوج ريشة الكتابة، وأخبرها: أن عليها أن تكتب ما دام الأمر يخلصها من قلقها.

كانت وحيدة فرجينيا المعذبة، جالسة تتأمل آخر نهارها، الأشجار في حديقة المنزل تجلس مسالمة مدركة

بعمق قلبها معنى: إنك لكي تعيش مع الآخرين، عليك أن تتخلص من إحساسك بأن من مهامك أن تغيّر العالم.

فكرت في أختها التي عذبتها كثيرًا.. الحجرات المقبضة.. والنزهات على شاطئ البحر.. والرغبات المحرمة.. "أنت تؤذينني". الحفلات المسائية بحشد النساء الجميلات، وهي منزوية هناك في لندن تتأمل لوحة على الجدار، وتراكم الثلج على النافذة، وتسمع صوت الريح. كانت تنفصل عن العالم وتتعاطى عقاقيرها لتقاوم اكتئابها المزمن. همست: لن يتركني أحد. عليّ أن أكف عن أحلامي، وأن أذعن آخر الأمر لتلك الأصوات التي تأتي من حيث لا أعرف.

أختها في البيت تجهز حقائب السفر.. وتقف أمام المرآة متأملة نفسها في زهو، وتعدل قبعتها الإنجليزية، وتسمع من الخارج صوت صغارها: خالتي فرجينيا.. خالتي فرجينيا تعالي معنا إلى لندن.. ما تزال الأخت تتأمل نفسها، واثقة من إحكام سيطرتها على تلك المسكينة بالخارج التي تعرف أنها تعيش أسيرة لأصواتها الداخلية، وتعيش بذهن مشوش طوال ما تعيشه من عمر.

صوت جرس الكنيسة في الظهيرة الأبدية "أي صوت هذا؟". همست فرجينيا لم تعد تبكي طفولتها القديمة لكنها لا تكف عن التفتيش في عمق روحها، تلامس جسد أخيها المحرم الذي كرهته كثيرًا، وحرّم عليها الرجال، مغادرة متعتهم، نافرة منهم، كل هذا الألم جعل روحها تعيش ألمها الدائم فيما بقي لها من سنوات.

نظرات أولاد الأخت قادمين.. الولدان الخنزيران والبنت الصغيرة الملاك.

نادت بصوت نحيل واهن:

"انجليكا".

خيّل لها كأن البنت تحلق فوق أشجار الحديقة.. هي ترتدي ثوبًا أبيض من الدانتيلا مثل عروس صغيرة، وتركب على ظهرها جناحين مثل الملائكة.

الأخ المحشو باللحم مثل جسد متخم يحمل على كفيه طائرًا ميتًا، وكانوا قادمين نحو فرجينيا وهي تذعن لمشهدهم، وتغادر شرودها وتتأملهم.

صرخت انجليكا الملاك:

"خالة فرجينيا الطائر مات"

لا أحد يستطيع أن يحرر روحها عندما سطع الموت على الحديقة.. موت طائر هو موت لكل كائن.. نهضت من على المقعد ثم خطت مسلوبة الإرادة حيث الطائر الميت.. كان طائرًا صغيرًا مثل لعبة، يستقر على جنبه ومستسلمًا لقدره، رافعًا رجليه ناحية السماء.. أخذت فرجينيا الطائر ثم تهاوت على العشب عندما داهمها الموت المفاجئ.. كأنني أقبض على مصيري.. غاصت بكل جنونها في لحظة قداسها الجنائزي، وعادت أجراس الكنيسة تقرع من فوق، من هناك بالقرب من القبة ذات المعمار البولوفيني التي تشرف على الحي القديم بالمدينة البعيدة على النهر، والتي كثيرًا ما تقرع أجراسها في السكون فجأة فتضرب القلب بالخوف والمواجع.

وضعت الطائر على الأرض المعشبة، وظلت تتأمله بشغف الفراق، وكأنها تود دفع الموت الفاجع الذي فاجأها.

قالت إنها لم تنتبه إلى الوقت جيدًا، وإنها لم تحترس من الموت أبدًا. قالت دعونا نصنع قبرًا للطائر. ثم أكملت، هناك وقت للموت. في الخلف تمثال لامرأة عارية تقف بين أشجار الحديقة المزهرة، كمن يطوح الريح بشعرها.. التمثال

في النهار الرصاصي مشبع برائحة الموت. قالت البنت ذات الجناحين:

"مات الطائر ليصنع قبره.. هيا لنساعده على أن يصنع قبره".

دخلت فرجينيا إلى داخل البيت عندما سمعت رنين الهاتف يتواصل في الصمت، وشعرت بصوت هادر لخطيئة متوقعة بعد قليل سوف تضرب اليد المدربة أصابع البيانو بألحان جنائزية لفيليب جلاس.

اتكأت على ألمها وقالت: إنها قضت عمرها كله لا تعرف سوى الكتابة. وكانت تدرك أنها من وقت بعيد قد جنت، وأنها كانت تستر هذا الجنون بذلك الصمت، وذلك الهدوء الغامض، الذي يتجلى في مظهرها، حين تضع يدها في جيب معطفها الرمادي الذي سوف تموت بداخله.

ظلت تفتش عن عناوين في دفترها، وعن أرقام لهواتف بعيدة لكل هؤلاء الذين تود أن تهاتفهم. راجعت كل الأسماء، وحين لم تجد أحدًا يستحق المجازفة أغلقت الدفتر ومضت تصعد إلى الدور الثاني كانت تستمع لخطوتها مثل لحن رتيب فوق الدرج الخشبي.. حجرات مقبضة، وجدران

بيضاء شاحبة، كانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما. همسـ ـت لنفسها "ابكِ قليلاً.. البكاء يغسل الـ ـروح"، وعـ ـادت تتأمـ ـل السجادة المفروشة علـ ـى الأرض برسـ ـومها الأسـ ـطورية.. وعادت، وبكت وسط الحجرة، وتذكرت أنه بعد سـ ـنين مـ ـن لحظتها سوف ينهض من كتابها ذلك الشاعر الـ ـذي نحـ ـره المرض، والذي تحدثه السيدة ذات الاسم المشـ ـهور، والتـ ـي أقامت على شرفه حفلة لم يحضـ ـرها والتـ ـي تتصـ ـت الآن لإحدى أغنيات شتراوس الحزينة عبر هؤلاء المحتفين، الذين يرتدون البذلات السوداء، وينظرون من خلال نظاراتهم إلى الأضواء الخفيفة المنبعثة من الجدران. خطت ناحية حجـ ـرة نومها وتأملت فراشها الذي لم تتم عليه من سـ ـنوات بجـ ـوار زوجها الطيب. تفكر الآن في ذلك الشاعر، وتتأمل مصيره، وتعرف أنه سوف ينهض من فراشه ويتجرد مـ ـن ملابسـ ـه ليلقي بنفسه من النافذة، تندهش فرجينيا من تقاطع المصائر، وتدرج على نحو حزين مدركة أن طرائق الموت متعـ ـددة، لكنها تقضي إلى فعل واحد. عادت تهمس لنفسها: كان علـ ـيّ ألا أكتب هذا.. فتحت خزانة بالحائط. تأملت كـ ـل أشـ ـيائها بحنين غامر، وسمعت المطر يهطل فوق أشـ ـجار الحديقـ ـة،

شغلت الفونجراف فصدحت موسيقى باخ بحزنها الجليل. التمع أمام عينها وميض من ضوء خفي، همست لنفسها: لابد أنه هناك. وطاف بخيالها شبح أختها المغادرة والتي دائمًا ما تترك رماد سجائرها في الأركان. هبطت ثانية إلى الحديقة ورأت البنت ذات الجناحين وكأنها تتهيأ للطيران، وعادت تتأملها بحزنها الذي يليق بما هي فيه.

هطل المطر بغزارة، وأرعدت السحب فيما برقت السماء من ناحية الشمال.

سماء سوداء تحلق في جنباتها طيور متخبطة تقترب من الأرض وسرعان ما تعلو مروعة بصوت الرعد والتماعات البرق.

سألت البنت فرجينيا: "ماذا يحدث عندما نموت؟".

أجابتها:

"نعود للمكان الذي جئنا منه".

قطفت فرجينيا ثلاث وردات من الحديقة، وضعتها بجوار الطائر، ثم أسندت رأسها على الأرض تتأمل عين الطائر المحدقة على الفراغ، واستسلمت للحظتها وبدت كأنها غافية أو كأنها تحلم بتلك السيدة التي ترتدي معطفها الرمادي

على فستانها ذي الزهور الملونة وهي تحت خطاها، حامل ـة على ظهرها تاريخاً من العزلة، والنوبات، وفقدان الـ وعي، وموهبة الخيال التي لا يباريه ـا موهب ـة.. س معت نفس ـها تهمس.. دائمًا السنين بيننا.. الموق ـع.. الس ـاعات.. ص فير القطار.. السيدة دالاواي..

تتجه الآن ناحية النهر – بمعطفها الرمادي وفس تانها المزهر – لتلاقي مصيرها، وحين تكون على الشاطئ تجمع الأحجار الصغيرة وتدسها في جيب معطفها حتى يقاوم طفو جسدها ويكون أثقل على الماء ويهزمه، ويخترق الطحال ـب وأسماك القاع الضالة، والنباتات الهائمة، الم وت الأخي ر: سمعت نفسها تهمس لنفسها:

"ألم أقل إنني عليّ أن أقتل أحدًا".

يوم بسبعين سنة

للمصريين وطن، نصفه من حقيقة، ونصفه من خيال.

اعتصر دماغك بدلاً من السنة ألف، فلسوف تستدعي من تواتر الحكايات ما يحفظ للآدمي ذاكرته، ولسوف ينتهي بك الأمر، كالعادة، واقفًا عند مزار لولي من أولياء الله الطيبين، المقيمين في أضرحتهم الجاثمة هناك عند شطوط الترع، أو عند الصحارى الموغلة، أو في قلب جبانات المدن، بركة وشفاعة، لكل بلد وليها وحافظها، تطلب بركته في كشف الغمة، وحمايته من شر العين، ومخاطر الطريق. لسوف تجد نفسك واقفًا عند "هرى" ساقية. أو غافيًا على بلاط مستعجلة مسجد. أو ساند ظهرك إلى ساق توتة قديمة تصغي إلى أنين ساقية، مقاومًا نعاسك، ومستسلمًا لأصداء صوت بعيد لامرأة تناديك في الحلم. أو خائفًا من حارة سد يسكنها الظلام فلا يكون دليلك إلا صوت أذان الفجر، عطوفًا في قراره الأخير "الصلاة خير من النوم". أو تكون مسترقًا السمع لرجل يهارش امرأته حيث تسرح يده الخشنة في غيط جسدها المربرب. أو لابدًا بجانب مصطبة من عمر البلد: تسمع حكايات المربوطين بسحر أهل الأرض السفلية،

الذين ينقلون الحيط على الحيط، ويكتبون العمل على ظهر القراميط ويطلقونها في الماء الجاري، وقيعان الأنهار، ويدفنون الأعمال داخل الجبانات، ويشبشبون للقمر الذي يسبح في كشفه مزهوًّا بجنونه، لتقليب أحوال المحبين بما كتبته حروف الطلسمة، وأخبار النجوم، أو تلبد تحت ضرع بهيمة يتفزز باللبن، تدور على نفسها، متناشة في رأسها، جاحظة العينين وقد لونتهما حمرة ألم الولادة، وقد أطل خطم وليدها منزلقًا من الظلام إلى النور، وأنت تجذب الرأس، ومقدمة القدمين زاعقًا بأعلى صوت:

"شد ياله.. شدي يا بت" فيما ذبالة مصباح معلق على الجدار تخايل الظلام بنور شحيح مصروخ، وأنت تعوم في ماء الميلاد، ينشق صدرك بالفرح وأنت تستقبل بركة حلول الروح على الأرض، سواء كانت عيالاً أو عجولاً.

عندما تمتلئ روحك بكل هذا التراث القديم، سوف تنتبه فجأة أن هذا الجنس من البشر، والذي أطلقوا عليه اسم المصريين، وبالرغم من كل ما جرى له، ما يزال يمتلك وطنًا من الحكمة، يعج بالرموز، والسحر، وجمال الصدق، ومعرفة الغيب، والنوايا الطيبة، وما زال يمارس هوايته في

تسخير الزمن، وأنه ويا للعجب ما زال مفتونًا بتوالي دورة الميلاد والموت. فقط تكة صغيرة وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه.

تضحك؟!!!

اضحك.

ستقول لي مشوحًا في وجهي:

يا ابني دماغنا.. من تتكلم عنهم.. هؤلاء.. تخصصوا في صناعة الطواغيت.. يا عم بطل دردبه، وراجع ما كتبه مؤرخ من هذا الجنس حين وصفهم: بأنهم شعب قليل الصبر والجلد، وسرعة الخوف من السلطان ويشتهر أهله بالجبن، حتى قالوا إن كلاب مصر أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان.

اضحك يا عم، فكم دقت على الراس طبول، على كل: أنت حر، صدق أو لا تصدق، هي أمور حدثت وما تزال باقية، وكل المسالك مفتوحة أمامك، وهي حسبة، إما أن تكون معه، أو تنعل سنسفيل من جابه.. وهذا ما جرت به المقادير.

دعنا نحكي؟

لنقص القصص.

الحكي شفاء للروح، وصدى صوت الحكاية في زمن مكبوس بالهزيمة مثل الجرس.

وعمي الذي سوف أحكي لك طرفًا من خبره، والذي يشم على جبهته اسمه "أحمد عبد الغفار الكفراوي" والذي جلست تحت قدميه طوال طفولتي أتلقط صدى صوته، وأعي أحاديثه التي ظلت في الذاكرة مثل طقس مقدس، وظلت على لساني مثل لهطة القشدة في صباح شتوي، جلسة أفعمت باصرتي على الكون، وعلمتني فيما قدم من سنين، معنى زمان الكدح، ووطن الخيال، ومعنى الإحساس بالمقضي، والمقدر، والمكتوب، ومعنى حكمة الصبر على الشدة، عندما تتبدل الأمور من سيئ إلى أسوأ، وتتدس قطة مشعللة بلهاليب النار في كوم القمح الصائف على أرض الجرن فتلتهم بلا رحمة رزق العيال، وخزين العام، وأبي وأعمامي يقفون على العتبة ليس أمامهم من فرصة لإنقاذ شيء، تلتهب وجوههم بالنار الموهوجة العالية والتي تصفر في المحصول الصائف.

عمي الذي أمضى عمره المديد كله في يوم واحد.. عاشه بتقلب أحواله وزحمته في شبه يوم.. يوم من خيال..

منسوج من الساعات والأيام والشهور والسنين.. إلا أنه يوم.. بدأ من مخاض الميلاد على سطح فرن قديم يتوسط قاعة مكبوسة بالعتمة، ودخان المحمة، وانتهى بالموت في نفس القاعة التي لم يتغير فيها سوى فتح طاقة نور صغيرة جهة المغارب.. أحكي؟!!.. سامع؟!!

حين مات جدي ترك من العيال خمسة، وبنت اسمها "مريم". يقودهم أبي الذي كان شابًّا، وكان مثل حجر الرحى، يرعى تلك الخراف الصغيرة مع جدتي، "هانم" التي كانت عقل الجماعة وضميرها.. وعمي ثالث الأولاد، صغيرًا مثل عود أخضر.. من طفولته، وعبر عمره كله، ينهض من منامه قبل طلوع الفجر، يؤدي الفرض على المصلية المقامة على الترعة أمام الدار، ويخطو ناحية الزريبة، ويأتي بكرسي صغير من الخشب لابدًا تحت بطن الجاموسة، في عتمة ما بعد الفجر، يحنن ضرع البهيمة التي ترفع ذيلها وهو يطبطب على الضرع بحنية، بعدها يسيل اللبن مثل ينبوع في طاجن من الفخار، يحمله حيث حجرة اللبن في الدور العلوي.. يفطر من رزق الله، أرغفة لينة وخرطة الجبن، ويفك مقود الحيوان متجهًا إلى الأرض القريبة.. يربط البهيم

ويحش البرسيم، أو يقصف الذرة، أو يملأ المزاود بالتبن ويخلطه برشة الفول.. إن كان هناك ري يروي.. أو عزيق يعزق.. أو حرث يحرث.. أو بذر يبذر.. في الظهر يستقبل القبلة، يدور بقية النهار في أرجاء الحقل تسمع صوت غنائه مطاردًا النبتة الغريبة، والحشرة المؤذية.. وفي المواسم يحصد، ويجمع، ويعود في الليل مثلما ذهب في الصباح، يحلب حلبة المساء، ومع الأذان يركع، ثم يسلم جسده للرقاد.

مثل ساعة ركبها الزمن داخله.

لم يكسر هذه الدورة شيء طوال عمره.. دورة مثل دورات الفلك، أو الكتاب المسطور في الأزل.. مثل وقت الأذان.. أو اكتمال المحصول في ميعاده.. أو عشار البهيمة في موسم طلب العشار.. أو حلول الليل والنهار، وشروق الشمس وغروبها، ونزول الروح في الزرع والضرع، ولحظة تكوين جسد البكر وبروز الثدي تحت الثوب.

مواقيت ومواسم، وتعاقب الفصول، علمته أن في "مسرى" يفصل الحيوان عن طلب العشار، ويزرع البرسيم، وتكثر ريح الشمال، وآخر الشهر أيام النسيء.. وفي "توت" يعتدل الليل والنهار.. وفي شهر "ربيع" مات النبي محمد

مثلما ولد... وفي "بابه" يحصد الأرز، وتزرع حبة البركة.. وفي "هاتور" يحكي إمام المسجد الجامع أن "كسرى أنوشروان" فطس وحشر في نار جهنم.. وفي "طوبة" يغرس العنب والتين، وبه ليلة الغطاس، التي سوف تشتي فيها الدنيا حتمًا، بهجة واحتفالاً بتعميد "عيسى بن مريم" عليه السلام.. وفي "أبيب" تظهر الشعرى اليمانية، وأوان جمع القطن، وكبسه في ساحة الدار الواسعة.

وكنت وأنا صغير أستلقي على حمل القطن الأبيض مثل اللبن الحليب، وأنا أراهم يرشون القطن بالماء، ويكبسون الأكياس، وأرى عمي وقد غطس لنصفه في كيس، يشد أطرافه ويدك القطن بقدميه. وكان نور الكلوب المعلق على الجدار يغمر وجهه، وكنت أسمعه يطلق الموال مستدعيًا البلاد البعيدة، ويفتح أمامي السكك على النعمة، ورنين المال الذي سوف يهل على الدار بعد بيع المحصول، فيمتلئ الكيس الفارغ، وتعمر القاعات بخيرات المحصول المجيد.

سنوات طفولتي كلها معقودة في يديه. يسحبني للصلاة، وبعد العشاء نركن في زقاق "الزوايدة" الضيق مثل شق ثعبان مع أصحابه يستمعون للراديو الوحيد في البلد، والذي وضعه

صاحبه في شباك بيته يغني بصوت "أم كلثوم" فيلتهبون من حلاوة الصوت، وجمال اللحن، وحين، يركب عفريت الانسجام أحدهم ينشال ويتهبد ضاربًا الأرض برجله، مشوحًا بيديه في الليل، صارخًا: عليّ الحلال من مراتي زكية كل ما تحل تحرم، أن "أم كلثوم" دهيت بيسمعها الجن، وأهل تحت الأرض من عباد الله.

وأكون قد رحت في منامي، يحملني الصوت إلى بعيد، ويرجني الهرج، وأشعر وأنا في لحظة من إفاقة بيد عمي تحملني حيث دارنا آخر العمار، وكنت أسمعه بين الحلم واليقظة يهمس لي: بقى أنت نايم يا مكار؟!.

حدثني عمي عن والده الذي هو جدي، والذي لم ألحق بأيامه، ولكن تواترت على أحواله، مرة عن أبي قليل الكلام، وكثيرًا عن عمي صاحب الخيال الجميل. جدي الذي كنت أتلمس خطواته، وأستشعر أنفاسه، حينما كنت وأنا بعد طفل مثل جدي من جديان الدار، أسمع جدتي تطلق ذلك العديد المنظوم بالفراق، والرحيل المبكر، فأتأكد من لحظتي أن جدي حاضر في المكان بالروح وسلطة الموت. وعندما أفزع من عديدها أسألها متوجسًا: هو جدي كان هنا يا ستي؟

وكانت تنظر تجاهي مدهوشة ولا تجيبني، وأسمعها تهمس لنفسها: الواد ده ممسوس، لحظتها أتكور على نفسي، وأستلقي على حمل قش الأرز على سطح الدار، ناظرًا ناحية شمس الخريف المعتمة مثل كرة من ضوء، تؤذي العين. يأتيني صوت العديد مخترقًا قلبي بحزن أليف، ما يزال حتى يومي هذا مستقرًّا في حبة القلب مثل شريان الدم.

يهبع عمي مثل الجمل، ويشوح بيده:

- ما هو جدك دهوت انهبل آخر أيامه. وكنا نربطه على سطح الدار في عرق خشب، وكان لا يكف ولا يهمد، لا ليل ولا نهار، يغني بالموال، وفي الفجر يرتل القرآن، وبين الغنى والقراية كان يعيط مثل جمل محبوس.. ويصمت:
- كان بيصعب علينا لما نسمعه بيعيط عند الفجر، ويواصل الكلام:
- لما طال سجنه فزع أبوك في ليلة، وطلع السطح وفك قيده، وأطلق سراحه للبراح، جدك خد في وشه وقال يا فكيك، واستمر يغني ويقرأ القرآن،

وبعد تلات ليالي جابوه من الغرابيل، غرقان وشبعان موت.

أنتبه، وأطرطأ أذني، وأقترب من عمي الذي يسند ظهره لذكر التوت القائم يظلل مربط البهيم. يفرد رجله ويضرب سمانتها بيده. كنت ألمح على تقاطيع وجهه حزناً مثل سحابة، وكنت أعرف أنه كلما حكى لي هذه الحكاية يشخص ناحيتي بعين قد انطفأ بريقها، وكان يعود وقد غلبه حماس الكلام:

- أصل الحكاية، أنه لما طلب من الخواجة "مزراحي" صاحب ذربيّة القطن سلفة الجمع، رفض الخواجة وعنفه، وقال له: أنتم فلاحون ما عندكوش دم. عاوزين تعيشوا ببلاش. ساعتها رد عليه جدك: عيب يا مزراحي، متبقاش خواجة وناقص.. والمحصول جايلك، جايلك، وابقى براحتك اخصم سلفتك، فز مزراحي من على مكتبه وهبد جدك قلم طير حمامة عينه. جدك ركبه ميت عفريت وقفز على ابن اليهودية ولم يتركه إلا وحبة عينه كابشها بين صوابعه. في

السجن راح منه عقله، ولما أفرجوا عنه كان على
دي الحالة. مات غرقان ووحيد، وزي ما طير
عقلنا في حياته، هبلنا عفريته بعد مماته.

حين تحضر سيرة العفريت، أنشال وأنهبد، أجلس على قرافيصي، وأكبس طاقيتي الصوف في رأسي، وأقترب من عمي الذي يفتح لي أبواب العالم المسحور، ويشير بإصبعه ناحية مكامن الجن، وخرائب البيوت المسكونة، ويحدثني عن شجرة الجميز عند النهر في أرض الساحل، حيث تعقد تحتها ليالي السمر ومغاني الجن، وتدق الطبول، وتصدح المزامير، وينطلق الغناء على شاطئ بحر شبين الجاري مثل سرسوب من لبن تحت قمر منور، ومزهز في اكتماله، وويل للعائد وحده في الليل من سفرة، أو غربة، أو لقاء حبيب، فلسوف تسحره الطبول، ولن يعرف لروحه طريق جرة.

أمضيت عمري حتى خريفه، أسمع الهمس في الأركان بلغات غريبة عليّ، وأرى في الزوايا أشباحًا تتشكل مثل خيوط الدخان، وأسمع وأنا أصعد درجات السلالم في الظلام من يهتف باسمي، واسم جدي، ويأتيني من بعيد، صوت الغناء البعيد، في الصحو والمنام حيث يتجسد لي هذا العالم

الذي حملني إليه عمي، والذي كبر معـي، وأخـذ أشد كالاً أخرى، والذي كثيرًا ما أفزع منه في الليل، فإذا ما سـألتني زوجتي: مالك؟ أجبتها بوجل: خير، اللهم اجعله خيرًا.

من بداية الوعي بالدنيا وعمي لا يكـف عـن حكـي الحكايات لي. كان يحكي لي عن الآثـار المدفونـة بقريـة "أبو صير" المجاورة للبلد، والتي لا تخرج من دفنتهـا فـي الأرض إلا بعد قراءة الأوراد، وسورة النور. زلـع ملآنـة بالذهب، ومساخيط على شكل فراعين بادوا، وأوانـي فيهـا الحشا حي كأنه مات البارح، ولصوص تعبـئ فـي قففـ وغلقان تماثيل، وأحجار من المرمر عليهـا كتابـة برسـم الطيور، وتشق طريق الغيطان بالليل حتـى البلـد الكبيـرة مصر، تبيع وتشتري، وربما لا تعود أبدًا.

عمي أحمد عبد الغفار الكفراوي.

السرح مثل نأز التوت، يلبس ثوب الدمور المصـبوغ بالنيلة الزرقاء في مصبغة "مسعد"، يقف أمامي بوجهه المليح الأسمر مثل شقفة من رغيف قمح هنـدي، يـتعمم بمنديلـه المحلاوي الأصلي، مفنجلاً عينه التي تضوي بلون العسـل،

قابضًا على يد فأسه بكف تلوح عقلها الشهباء أمامي مثل حبات عقد الكارم.

يشوح قائلاً:

- أنت فاكر إيه!! كل دار في أبو صدير دي مبنية على سرداب طويل يغطس فيه الفلاح من دول ويطلع باللي فيه النصيب. بلد قديمة وعمرها من السنين ألوف.

يضرب فأسه في أرضنا الباء، وأسمع من ضربة الفأس صوته آهه.. نغمة رتيبة مثل لحن مصاحب لضربة الفأس في رحم الأرض الشراقي، يرتفع ظهره سامقًا، واضعًا يده في وسطه، ساندًا الفأس لركبته، مهيئًا الأرض للري في الصباح البدري.

- هو أنت فاكر أن عمك الحاج مصطفى المنزلاوي اتغنى أونطه!!.. أبدًا.. هو كان حيلته اللضة.. وهي فدادين الفاكهة، ومحلج القطن، وأماين الطوب، وبوابير الحرت، وبهايم الحليب، وعجول الأنية، كل ده لقاه ع السكة.. ورحمة جدك أبدًا.. كل ده من الأثارات.

يهرش جنبه، ويواصل:

- بيقولوا لما نزل السرداب انقفل عليه بالضبة والمفتاح، لكن ابن اللئيمة كان حافظ سورة الفتح، قرأها وانفتح الباب، وعتق منه، صاغ سليم.

يتفل في يده، ويواصل عمله، ثم يرفع ظهره مشدوحًا بذراعه:

- حكمتك يا رب، تدي الحلق للي بلا ودان.. بلد عايمة على كنوز، وكفر المتاعيس اللي احنا فيها دي شراقي زي ترعة ناشفة.

تكون البهيمة دايرة على مدار الساقية، ويكون الماء قد أطل برأسه من البير، ونباتات صغيرة خضراء تهتز بفرح الأفراخ الصغيرة، وترف بأجنحتها.

وأنا خلف البهيمة أدور، ناظرًا عمي بسرواله الطويل حتى صابونة رجله مثل فارس. فجأة نسمع الصوت الغريب من خلف دغل الشجر:

- هم الكفاروة فاكرين نفسهم إيه؟.. طلاق بالتلاتة من مراتي، لنهارهم أسود ويشهد عليّ الخلق.

يرفع عمي ظهره، مصغيًا للصوت وذ اظرًا ناحيت ه. يبرز "يحيى أبو لاشين" بجسده الرفيع، ووجهه الأحمر يك اد الدم يبك منه تسبقه زيطة، وسباب من ك ل ل ون، يرتـ دي جلبابه الكتان الأصفر، وعلى رأسه طاقية بيضـ اء. سـ لالة أتراك باد أهلها من زمان، تتواصل في الجعجعة والتف اخر والوجوه البيضاء بعيونهم الزرقاء. حفدة من ناس خـ رعين لا حول لهم ولا قوة. صوتهم أعلى مـ ن أفعـ الهم، راحـ ت سراياتهم، وأراضيهم بيعت فدان وراء فدان، ولم يعد بـ اقي لهم إلا الجعجعة والستر، يصل "أبو لاشين" إلى البر الثـ اني من الترعة. صوته يجلجل في فراغ الغيط:

- والله نهارك ما هو فايت يا أحمد يا كفراوي، معنته إيه تروي قبلي، ودوري النهاردة في الري؟!

يرد عمي بمسايسة، وطيبة قلب:

- يا عم يحيي استنيناك من صباحية ربنا لغاية مـ ا الشمس ما ملت الدنيا، ولما ما حدش جـ ه علقـ ت البهيمة ورويت.

تبرق عين "أبو لاشين" الخضراء بالغضب، ويشـ وح بيده ضاربًا الهواء:

- دوري يتحفظ لي، تسبقني في الري قلة قيمة. أنت فاكر أننا الحيطة المايلة بتاعت الكفـ اروة. يمـ ين تلاتة أن احنا أسياد البلد.. يمين تاني إن ما حليت بهيمتك لأكون مفخت نواضرك ومشـ يك أعمـ ى تقول لله.. ناس رمم زيكم يسـ قوا قبلـ ي. تبقـ ى هزلت. الله يرحم أبوك اللي مات غريـ ق وفقيـ ر دقة.

تضرب الكهربا عصب عمي ويرمي الفأس إلى شاطئ القناة، وفي لمحة عين يقفز الترعة قابضًا على طوق جلباب الرجل آخذاً بخناقه، وبكفه الأخرى يغرز أصابعه في سوسة قفاه، ويجذبه جذبة فينكب في الترعة مثل غبيط السباخ، وفي الماء يشنه، يغطسه ويطلعه، حتى يقطع النفس، ثم يسحبه إلى الشاطئ يرميه وقد تهدل شاربه الرفيع الذي كان مبرومًا من لحظات. أخاف أنا على "أبو لاشين" ليفطس في يـ د عمـ ي فأرفع صوتي راجيًا:

- خلاص يا عمي ليموت في إيدك.

يتركه زاعقًا: ناس تخاف ما تختشيش.

لعمي علاقة بالحيوان معلومة للجيرة وجيرة الجيرة، يعلفها، ويحممها، وينقي القراد من جلدها، ويتربب تحتها، ويفيض عليها بكرم أكثر من اللازم. تشم رائحته فتعرفه من بعيد، فتطلق نعيرها في نداء من مودة، فإذا ما اقترب منها لحست كفه بلسانها الخشن، جاموسة بعينها لا تحلب إلا على يديه، وإن غاب لظروف قاهرة صامت عن الحليب حتى لو جابوا لها وليًّا من أولياء الله الصالحين.

أذكر أنه كان عندنا جمل، سماه أبي "أبو الحمول" أشهب يميل للبياض، بعينين مكحولتين بليل، وله قامة ممدودة مثل تل، طيب كولي، ومطيع مثل أجير يشتغل بلقمته، وكسوة بدنه. لكن يا ويل البلد لو صفرت الريح في أذنه، وركبه الزنان. يقطع شحاطه، ويهيج ضاربًا بالقلة مثل جبار فقد عقله، وعبر الدروب والحواري يندفع رامحًا مثل ريح خرجت من عقالها، رافسًا فلانًا، وباركًا على علان.

في الجرن كنت أقف على كوم الردم. وكانت أختي "الطاهرة" وبنت عمي "فوزية" تلعبان في ساحة الجرن. طفلتان تحبوان. اخترق الجمل أرض "المصدارة" مزهوًّا بجنونه، وما إن وصل إلى جرننا حتى توقف بالقرب من

البنتين اللتين تلعبان قريبًا من أرجل الجمل. تجمعت الناس حول الجمل مثل يوم الحشر، ولا أحد يمتلك جرأة لخطف البنتين أو الاقتراب من الجمل الهائج. وكنت أرى الناس من فوق التل وقد اختل توازنهم، واشتد هياجهم، والجمل في الوسط مثل سيد كريم. لا أعرف من الذي أخبر عمي الذي رأيته قادمًا يعدو من ناحية الغيطان، يقبض على ذيل ثوبه بأسنانه. بدا لي من خوفي كأنني أراه يطير ويصعد ناحية السماء كمن نبتت له أجنحة، حتى إذا ما وصل جمع الناس اخترقه، متوجهًا ناحية الجمل حيث قبض على خزامه متبادلاً معه النظر، مكلمًا إياه بصوت حنون:

- مالك.. جرالك إيه؟

يسحبه ويمضي، والجمل يسير خلفه، ذلولاً، في طاعة العيال البررة.

حكايات تتواتر في القلب مثل دفق الينبوع. لا يمحها اتساع الأرض، ولا تقلب الأحوال، ولا صفير القطار المسافر إلى البلاد البعيدة. أقتات منها لأواجه بها المرئي وغير المرئي، وأجدها في كل أحوالي في الذاكرة مثل ضوء، تحفظ لي ديمومة الأشياء في الحل والترحال. عم من

حنين الماضي الآخر، الذي أواجه به ذلك العماء المحاصر، حيث لا أعثر لنفسي عن مخرج منه.

في أيامه الأخيرة، وكنا نجلس على نفس المدار القديم، بالقرب من الساقية نفسها، وكان عجوزًا، هده الزمن، يلتف بعباءة من الصوف مغادرًا البلد التي تغيرت بما يضنيه كل يوم.. رحل الأحبة، وطفا على السطح من طفا وغاب بالموت من غاب وأنا تحت الشجرة القديمة أحمل شيبتي على رأسي، وأسمعه وهو يحدق في وجهي قائلاً:

- والله وكبرت يا سعيد يا ابن أخويا!!
- يالله يا عمي، ما دايم إلا وجهه.
- فاكر لما كنت بتتنطط على المدار ده وأنت صغير. يومها وقعت في البير. كانت الساقية واقفة. لو كانت شغالة كنت رحت في شربة ميه.

يضحك وأنا أنظر له بقداسة، وأرى رأسه وقد صغر، وخطوط العمر على وجهه.. يلوك خديه الأدردين بفكيه ويسألني:

- إلا أنت يا سعيد يا ابن أخويا عندك كام سنة كده؟
- كتير. ويالله حسن الختام.

يضحك، ويسعل ويقول من بين فكيه:

– وكمان بتتكلم على حسن الختام.. دنيا!!

تدرج السيارة على الطريق الزراعي مكروشة النفس.. يدفعها جنوني على الأرض المستوية، بطريقة غير طيبة، تحت سماء الصباح المشبرة بدخان تتنفسه الأرض في البواكير، وبقلبي تدوي صرخة الهاتف: قوم عمك تعيش أنت.

أتوجه ناحية البلد وقد زلزلني خبر الرحيل.. عمي.. أبي البديل.. الأول والثاني والأخير.. لقد أمضيت من عمرك السنوات دون أن تحصيها. أم كنت تعرف عدد السنين، وتنتظر يوم الحساب؟ لقد عشتها منذ صرخة الميلاد، وحتى الرحيل الأخير نحو منيتك مثل يوم، وعشت طول عمرك تواجه الزمن بتلك السخرية، وتلك الحكمة القديمة، الموروثة.. الأعمار أمانة تعود لصاحبها، والله جاب، الله خد، الله عليه العوض.

كان مسجى على دكة الخشب، مطمئنًا، وكانت القاعة التي ولد فيها على حالها. ضوء شاحب ينفذ من طاقة المغارب. وأنا أقبله وأقاوم بكائي.. هل أبكي الآن أم أحتفظ

به عندما ألتقي بك وحدي في الليل؟.. أم عندما أراك تتبع من الصفحات البيضاء، فأجلل رأسك بحروف الكتابة، صانعًا منها تاجًا للزمن وللأيام؟... عمي.. أبي البديل الأول والثاني والأخير.. وفي نفس القاعة، وأنا صغير أدس يدي في سيالتك وأسرق النصف فرنك.. وأسمعك تنادي أمي: الولد مسافر جهزي له زوادة خير تنفعه في الغربة.

أشم رائحة القاعة، وصابون الغسل، وأتلمس الكفن، وأنت تتهيأ للرحيل مغادرًا الدنيا بوجهك المغمور بطمأنينة ما بعد الحياة، وأنا أنصت للأصوات الضائعة في الفراغ خارج الدار.

في المسجد صلينا عليه العصر، وخرجت البلد خلف النعش، وكنت أسير خلفه: "لقد صرت وحيدًا بالفعل" فجأة حدث هرج كبير، واختلت الجنازة، وبدأت الأصوات تعلو: الله أكبر.. الله أكبر.. ورأيت حملة النعش يركضون بسرعة وكأنما يسحبهم النعش نحو المقابر. ورأيت ركض الجنازة، وعفرة التراب، والغيمة التي حجبت الشمس لحظة. عند ذلك ضاعت مني روحي، وأجهشت بالبكاء.

القط والعصفور

في الهزيع الأخير من الليل، قررت أن أزرع في حشا زوجتي بنتًا.

تلك ليلة من ليالي الخريف، وأذ ا أنظره ا مسد تلقية بجواري ترتدي قميص نومها الوردي الذي تتطرز أطراف ه وفتحة الثدي بدانتلا بيضاء فيما تستقر رأسها عل ى وسد ادة مكسوة بحرير أخضر.

ليلة مثل كل الليالي التي حلمنا فيها بالبنت.

تهيأت، وتواترت بداخلي الصور.

جواري ألف ليلة بجواريها المغنيات، وبذ ات المعب د الوثني، وبعض الصور لأفلام ملوذ ة، والمسد جل بج انبي ينساب منه صوت "سيلين ديون" بأغنية عن البحر.

أقبض على ليلة من ليالي الخريف، وأسد مع سد قوط الأوراق، ورائحة تصعد من الحديقة مثل رائحة جذور قديمة.

تعرينا مثل طفلين، وظلال حجرة النوم مترعة بـ ونس يرجف القلب (أنت تحلم بالبنت تنبثق من رحـ م الأم مثلمـ ا تنبثق وردة).

وأدركت في هذه اللحظة السماوية أنني أعيش وقتًا من الحنو الجميل.

لكنه كان هناك.

مثل كل ليلة.

مثل كل ليلة.. كان هناك.

يفصلني عنه ممر باتساع ثلاثة أمتار يتمشى على سطح جارنا من الناحية الشرقية، يهز عجيزته في لامبالاة، ناظرًا ناحية شرفتنا المفتوحة على الليل. كان القط أسود غطيسًا، مكتنزًا ليس مثل القطط، بحجم كبير مثل قطط البراري.

ككل ليلة، أراه في مكمنه هناك.

يقف عند حافة السطح. يمشي في دورة ماسحًا المكان مثل حراس المقابر.

أحست بي زوجتي.

- مالك؟

- القط.

- يا راجل.

وخفت.

لا أعرف ما الذي دفعني للتفكير في غيـ ر المرئـ ي، وشعرت كأنني أعبر جسرًا في الليل ينتهي عنـ د منتصـ فه، تحته يصخب الماء مندفعًا بتيار مسرع.

يشغلني طوال فصل الخريف في وقفته الليلية تلك. إذا ما نوّر السطح عكس النور ظله فامتد وجاءني مواؤه غيـ ر المتوسل بوعيد مؤجل.

عقدت يدي على صدري، وانشغلت للحظة، وتأملـ ت الستائر المنسوجة بالأزهار الملونة.

ما إن فتحت فمي لأتكلم إلا وكـ ان قـ د قفـ ز قفزتـ ه المروعة عبر الممر مثل كرة النار مستقرًّا علـ ى فراشـ نا، يكحت بمخالبه المشرعة قماش المفرش، ويحدجني بعينين في صفرة الزهر. رفسته بقدمي فهـ وى مـ ن فـ وق السـ رير، وسرعان ما انطلق مثل السهم خارجًا من حجرة النوم.

(البس هدومك)

ارتديتها على عريي.

تلك ليلة طويلة (ومنذ طفولتك البعيدة وأنـ ت تخـ اف القطط).

نهضت وأغلقت على زوجتي الباب بالمفتاح، وقطعت الممر في أثر القط.

كنت كمن يعبر ممرًا سريًّا خارجًا من داخل نفسه.

أضأت أنوار الصالة كلها. نجفة الوسط مشكاة الممر. لمبات النيون في غرفة المكتب. الثريا العتيقة لحجرة السفرة.

كانت مساحة الشقة مفتوحة على بعضـ ـها، وضـ ـوى المكان مثل قاعة عرض في متحف قديم، ابتدأت اللعبة وعلى انتظار نهايتها بكل صبر.

كان القط واقفًا على مائدة حجرة السفرة، يـ ـدور فـ ـي دائرة من سواد، وعينه الزهرية تحدق في عيني مثل قـ ـرص الشمس، ينطلق شعاعها من مركز الوجه، وكانت نظراتهـ ـا مرعبة وعارية مثل هبة هجير، مشـ ـتعلة بحيـ ـاة متوحشـ ـة فطرية مراوغة، وكانت متحدية بغير ماحد.

فوق ترابيزة الصالون الصغيرة تستقر فازة من الخزف الصيني مرسومة بجلال سيدة ملونة، وطاووس يفرد ريـ ـش ذيله ويلتقيان (الطاووس والسيدة) عند منحـ ـدر يقـ ـود إلـ ـى البحر.

خطوت بخوف غريزي وقلت بصوت مرتجف:

- بس.

قلتها منذرًا من حلق جاف فالتفت القط ناحيتي وقوس ظهره ورفع ذيله، وسار عبر الصالة في خيلاء. كان يقف وسط السجادة بالقرب من دولاب الهدايا الاستيل.

- بس.

قلتها شاخطًا فماء بصوت غليظ. التقطت من عند العتبة فردة حذاء ورميته بها فقفز في الهواء، متجهًا ناحيتي، خامشاً وجهي بمخالبه، واستمر في إطلاق موائه، تحسست وجهي بيدي فشعرت بنفرة الدم ساخنًا، وتأملت كفي فراعني لون الدم.

صرخت.

خبطت الأرض بقدمي خبطات جديدة متوترة شحنت انفعالاتي، وانفجر بداخلي غضب سرعان ما انتهى إلى خوف.

أدركت أن ثمة شيء يسحب مني إرادتي. وتحت ضوء الصالة الساطعة، ووسط الصور المعلقة على الجدران، والتماثيل المستقرة على الترابيزات الصغيرة ارتد وعيي إلى بعيد.

بدأت المطاردة حامية.

كانت زوجتي من حجرة النوم تدق الباب بعنف في خبطات لها قرع الطبول صرخت فيها اسكتي. أدركت أن الأمر يخرج من يدي، وأن علي أن أحسمه، هجمت على القط بكل جسمي فزاغ مني ناحية الجدار، وتحت الأشياء قفز قفزة عالية وهبط بمستنسخ "جوجان" "المستحمات"، وتبعه بإطار يحمل صورة "للجزار"، وكنس في سكته تمثال "السيدة الرومانية" وتمثال لإيزيس في حضرة الإله "رع" وقلب ترابيزة صغيرة عليها أسطوانات "الدانوب الأزرق" و"زواج فيجارو"، فهشمها، وشرائط أندلسية، وأغنيات "لأم كلثوم" وسحب بمخالبه من الرفوف السفلية للمكتبة جزءًا من تاريخ "ابن إياس" ورواية "لماركيز" و"ترابها زعفران" "لأدوار الخراط".

خفت حتى الموت. شقني الخوف وهويت في خرافة مروعة، وشعرت بالفزع في حضور ذلك الحيوان البدائي، وانسحبت بانحطاط مروع إلى الماضي.

طاردت روحي صور الكلاب النابحة التي كانت تطاردني وأنا صغير عند نهر بلدنا في عز الليل، وأنا عائد

أتخبط في ظلام لانهائي، وتلك القطط السرية التـي كانـت جدتي تحكي لي عنها وأنا أنام على فخذها.

- تحمل أرواح من ماتوا وتدور بها في الليل. إيـاك وضرب قطة فهي روح هائمة.

وأبي يحكي لي عن تلك القطط التـي تفاجئـك عنـد التخوم، بالقرب من الأنهار الجارية.

- انتبه القط بسبع أرواح.

كشرت بوجهي وأصبح القط مرادفًا للعنة داخل وعيي، لكنني قاومت.. لأنك لا تعرف معنى أن تكـون مهزومًـا، وخفت أن أنهزم فأدخل غرفة نومي وأغلق على نفسي الباب.

الآن يا سيدي القط. كأنك تحيا في كل الأركان. تسكن الأزقة، والحارات، وبسطات السـلالم وأروقـة المكتبـات، وممرات أقسام الشرطة المتربـة، وتجـثم تحـت مكاتـب المحققين، وفي زوايا المساجد، وتخطو بالقرب مـن مـذابح الكنائس تلعق بلسانك وتنظف به جسدك في اطمئنان الواثقين. سن أنيابك في ذلك الوقت من الزمن الذي تقيم فيـه. تحـول إلى روح.. إلى أرواح.. اختلط بـالهواء لنتنسـمك برضـا أو بغير رضا.

وقف شعر رأسي ورفسته رفسة زاغ منها فاصطدم قدمي بكرسي الصالون. درت حول نفسي كمن به مس.

ألم مضاعف. شعرت بالألم في لحظته موازيًا لما لم أشعر به من رعب.

وعدت أتذكر أنف القبيح الأقني مثل أنف اليهود، وعينه الضيقة الصفراء تحت نظارته السميكة، وصلعته الجرداء الشبيهة بقرعة مقلوبة، وهو يزحف عبر الليل عند سياج المقطم، عند الهاوية المفتوحة على الخراب وقرية الخنازير خارجًا من ضاحيته المنعزلة قرب المطار يطلق صرخته في ذلك الليل الصحراوي الممتد بلا أحلام.

في اللحظة ارتفع صوت العصفور في القفص.

كنت أضع القفص في إحدى رفوف المكتبة، وكان العصفور ينتفض ضاربًا حديد القفص بجناحيه الصغيرين. كان يتخبط في رعبه ورفيف الأجنحة في القفص له صوت. انتبه القط الوجود العصفور فاندفع دافعًا مخالبه من خلال الحديد تجاهه، استكن العصفور في سقف القفص متخبطًا يقبض بمخالبه الحمراء على سقفه العلوي، ويطلق استغاثته.

اندفعت رافسًا القط بقدمي، أطاحت به الضربة حتى أسفل البوفيه فاستكن هناك.

الآن!!

ما هذا الذي يحدث؟!!

ما الذي يحدث لي؟!!

يا إلهي.. مثل عقاب.

تتأمل زمنك الذي يمتد في زمن وحشي. كأنما ما يحدث خارجك يحدث داخلك، وأنت تراقب اللحظة بكل حياتك التي تقارب الرحيل.

زحمة الشوارع.. الضغينة.. صوت الكلام.. لون السماء.. طاولات المقاهي.. أنياب من يمثلون رحلة العمر.. فوت السنين.

نظرت ناحية الصالة وتأملت شكلي في مرآة الوسط.

وجه أصفر وشاحب، وعلى الثوب الأبيض بقع الدم، وعينان تبرقان في جزع، وشعر مهوش.

أرزح عند الهاوية.

فتحت باب الشقة ملتمسًا الحيلة.

كانت الشقة في الدور الرابع. يغرق السلم الصاعد في الظلام الكثيف.

خرج صوتي:

- بس بس بس.

ملأت صوتي بحنية لا تناسب الموقف.

- بس بس بس بس.

خرج من تحت البوفيه يسير في كبرياء الآلهة. كنت أقف بجوار باب الشقة، أشير له بيدي ناحية الخروج، وكان القط يقف لحظة متأملاً ما أحدثه من خراب.

بالقرب من الباب وقف ناظرًا للحظة، ثم رفع ذيله إلى أعلى وهز عجيزته.

أشرت ناحية الخروج فخطا مجتازًا ناحية منتصف الباب الموارب. ما إن وصل بجسمه حتى المنتصف إلا وأغلقت الباب قابضًا على الجسد المشدود، وأخذت أضغط بكل طاقات الرعب بداخلي. كنت أقتل بعنف وحشي، وكان يعافر كاحتًا خشب الباركية بمخالب رجليه الخلفيتين.

وأنا أضغط من غير رحمة، بيدي وصدري، بكل مخاوفي الكامنة، وجسدي المشدود لائذًا بفرصة جاءت عبر غفلة الحيوان.

أضغط بذاكرتي مستعينًا بميلاد بنتي المؤجل، وزحمة الشوارع، وانكسار الناس. وسواد الهواء، والروح المستلبة بالعنف الطارئ الذي يشيع مثل صوت الضجيج، والحصار، والأفق المسدود أمام كل الاحتمالات.

كان القط يموء، ويستغيث، وأنا أتخيل منظره في الخارج وقد بدأ لسانه يندلق من حلقه، ويقيء دمًا، يحمحم، طالبًا خلاصًا مستحيلاً. وكنت شاهدًا على القتل، أضغط بعزم اليائسين على نصف القط خلف الباب.

عندما تأملت مؤخرته، كانت أمعاؤه تخرج مختلطة بدمه وبرازه وبوله، تتسرب من جوف جحيم الليلة غير المواتية.

هدأ تنفسي وسكنت ضربات قلبي قليلاً. كنت قد غرقت في صمت مثل صمت الصحراء، وأحسست كمن اجتاز غير خائف ممرات الظلام التي عبرتها وجلاً وأنا صغير. والحارات السد. وهمهمات الأصوات في ظلام الأقبية

والزوايا، والخبطات الليلية على أرض المسجد القديم. الوجوه الشاحبة الصفراء تحمل بسمات السخرية المرة.

فتحت الباب وخطوت خارجًا ونظرت القط في خفقتـ ـه الأخيرة، وطوحته بقدمي فهوى من مسـ ـقط السـ ـلم منهبـ ـدًا بالأرض في خبطة مكتومة ثم حل صمت مريع.

مشهد من ظهيرة القيامة

إنها الرائحة، العطنة، العجوز، التي تهب من الحي العشوائي الجاثم هناك على الهضبة.. من بعيد تلوح عمائر المقطم مثل حراس على مدينة الموتى.

يمينًا، انحرفت بالسيارة مارقًا من الشارع المسفلت الذي يخترق الجبانة إلى "صلاح سالم" دافعًا السرعة بكل ما بداخلي من غل لهذه الزحمة الأبدية.

نهار معفر، مغبر، يتوقف قلبه في إشارات المرور الملبدة بدخان العادم، وشمسه الباهتة تلقي بظل الأشياء على الأرض.

كانوا قد صرخوا في التليفون:

- قوم.. مصطفى أبو النصر.. تعيش أنت.

وكنت قد التعت وحدي، وأنا أصفق بيدي غير مصدق، صارخًا بأعلى صوت "الله يخرب بيت أبو الموت وسنينه.. ده معتش لاقي غيرنا".

في منتصف شارع الجبانة رأيته يبرز من زقاق جانبي، مندفعًا بسرعته الطائشة ويتسمر أمام السيارة التي كبحتها فانفجر صريخ العجلات. كان مهوشًا، يحدق بعينين

مفتوحتين، واسعتين يشع منهما ألق مجنون مثل لمعة المعدن. كان يرفع شمروخه إلى أعلى، وسرعان ما هبد بـ ـه ظهـ ـر السيارة في خبطة قوية، ومفاجئة. رأيتـ ـه يحجـ ـز السـ ـيارة بصليب جسده، وأنا أتأمله كمن خرج من كتاب قديم، بهلول، مهلهل الثياب، يشد وسطه بحبل يتدلى من طرفـ ـه عـ ـروس ملونة مكحولة العينين، من الفضة، يعلو رأسه شـ ـعر خشـ ـن مجدولاً في ضفائر، وذقنه التي خطها الشيب تصـ ـل حتـ ـى صدره الذي ازدحم بالسبح، والأحجبة، وقطع العظام الشائهة البيضاء.. كأنه أحد رهبان الأديرة في الـ ـزمن القـ ـديم.. أي نهار هذا الذي يبدأ بالموت، وهذه اللحظات من الجنون؟!!.

هممتُ بالنزول من السيارة، متأكدًا أنني في حضـ ـرة مجنون ممن يرعوون في هذه الناحيـ ـة مطـ ـاردين رحمـ ـة الخميس، ونعم أهل الخير.

كان قد خطا حتى باب السيارة اليمين، وحين واجهني رفع شمروخه مشوحًا به في وجهي، صارخًا:

– أنت فاكر إن يوم القيامة هو اليوم المعلوم بس؟

صمت لحظة ثم واصل كلامه:

- تبقى غلطان.. يوم القيامة ممكن يكون في أي يوم.. وهاتشوف.

أحسست كأن الحياة تهدر بغير المرئي، وكنت أتأمل الدرويش بذلك الجزء اليقظ من وعيي، عندما رأيته يختفي في الزقاق الجانبي، وحينما شغلت ماتور السيارة ونظرت تجاه الزقاق لم أجد للبهلول أثرًا.

دفعت السيارة بأقصى ما أستطيع، وأنا ألعن هذا النهار، وذلك الدرويش المعتوه، الذي خرج إليّ من زقاق ملعون ليكلمني عن يوم القيامة، ويشوح في وجهي بشمروخه الذي له رأس من نحاس أصفر على شكل تميمة لابن أوى.

قبل أن أصل إلى "صلاح سالم" تجاوزت الضريح المملوكي المغلق الباب من قديم، والذي لم أعرف صاحبه أبدًا.. انتبهت فجأة إنني طوال رؤيتي لهذا الدرويش، وفي تلك الساعة من النهار لم ألحظ له ظلاًّ على الأرض.

قبل أذان الظهر جلسنا في نقابة الصحفيين في انتظار خروج النعش من أحد البيوت الخلفية لشارع رمسيس، كنت أنا وأحمد خيري وعم محمد صدقي، وكنت شاردًا. ليس بمقدوري انتزاع نفسي من ذلك المشهد الذي فرض وجوده

عليّ منغرسًا في داخلي مثل ساعة خشبية من ساعات المساجد القديمة المستندة للجدار، يدق جرسها في الفجر فتشيع في صحن المسجد تلك الرهبة الغامضة.

- كان معانا في الأتيليه امبارح.

قالها أحمد، وفض علبة سجائره وأشعل واحدة.

- كان راجل طيب عليه رحمة الله.

غصت في الذكرى إلى آخر حدود اكتمالها.. ما كان عليك أن تسكن في هذا الشارع المنسي لتموت.. عشت طوال عمرك بالفتوى فيما تعرف وفيما لا تعرف.. لكنك في كل أحوالك كنت من الناس الطيبين.. أنا شخصيًّا لم أكن أعتبرك من القديسين، لكنني كنت أصغي لحديثك، وكنت أعرف أنك لم تمارس أبدًا كراهية الناس.. وكنت أراك في ليالٍ كثيرة منحدرًا من المدينة في الليل، تسير تحت البواكي للعمائر ذات الجلال القديم، خارجًا من زحمة الوقت، تنشد ذلك الجسر على النيل الذي يفصل بين عالمين، هابطًا من سلم الزهر، مجتازًا رواق المرايا لتقابل مَن أحبه قلبك. وأمضيت في صحبته السنين.

أربعون عامًا تتقاطع، وتنفلت أيامها وأنت تلتقي في المكان المعلوم مع زمان أخرق يترك على الجدران ذلك الشحوب، وتلك الرائحة المستقرة في القلب.

من كازينو "صفية" في ميدان الأوبرا، إلى مقهى "ريش" بشارع سليمان، إلى كازينو "قصر النيل" حتى تلك الحجرات المغلقة، الغامضة في الفنادق على النهر.

كل تلك الأعوام، وأنت تحدق في الماثل أمامك "أستاذنا" والعينين الضيقتين، المتعبتين تحت النظارة البنية، تطل من عمق ذلك الرأس الطيب الذي لا ينطق إلا بالحكمة.. قادم أنت الآن، وقبل انفضاض الجمع، لتلقي بوصيتك، لأنك في الغد سوف تموت.

قال لي مرة: إنه لا يعول كثيرًا على الأيام، وإننا في لحظتنا الحاضرة نخرج من الزمن بإرادتنا.

كان الابن البكر للواء يعمل ياورا للملك فاروق، قريبًا جدًّا من سراي عابدين، وكنت أراه كثيرًا يخرج ساعة من الذهب عليها نقوش وعلامات، وينظر إليها بافتتان، ويهمس لي: أعطاها لي الملك وأنا صغير.. أخذني والدي وأنا طفل إلى سراي عابدين، وكنت ألعب في الحديقة حين رأيت

جلالته خارجًا من باب القصر إلى الحديقة وأبي يسير خلفه.. كان يرتدي لباسًا رياضيًّا، ويمسك بيده عصا صغيرة من العاج، ويضع على عينيه نظارة سوداء.. سار في الممشى المبلط حتى منتصف الحديقة فجريت ناحيته، وضع جلالته يده على رأسي، وقال لأبي: ابنك ده؟.. فأجابه والدي: خدام جلالتك.. رأيته يبتسم ثم يضع يده في جيبه ويخرج الساعة ويعطيها لي قائلاً: حلال عليك يا عكروت، ثم أطلق ضحكة مدوية، وانصرف.

كنت أعرف مدى اعتزازه بالساعة، اعتزاز مَن يقبض على زمن طفولته، وكلما تأملها جاءت اللحظات النادرة من ذلك العمر البعيد.

نظرت ساعة يدي، وقلت للجماعة: ياللّه.

كان أذان الظهر قد وجب، وكان علينا أن نغادر مبنى النقابة، ونتجه ناحية البيت لحمل الراحل حيث الزاوية الصغيرة، الكائنة هناك بين مبنى جماعة الشبان المسلمين، ومبنى مصلحة الكيمياء.

شارع رمسيس في هذا الوقت من النهار مثل يوم الحشر. شارع لا يعرف الغفران. من منزل كوبري ٦

أكتوبر حتى ميدان رمسيس البعيد كتلة واحدة من سـ يارات وبشر.. يتقافز الناس في بحر الشـ ـارع مثـ ـل السـ ـعادين.. طاولات مرصوصة، ونسوة يسحبن أطفـ ـالهن، ومحطـ ـات المترو تفرغ أحشاءها إلى مجرى الشارع بلا كلل، شـ ـرفات العمائر المقامة أول القرن الماضي بحلياتها التي نحتت على شكل رءوس جنيات تتطاير جدائلها، وتنفرج أفواههن عـ ـن ضحكات مجنونة كثيرًا ما أخافتني في الليل.. يندر أن تـ ـرى شارعًا في العالم بهذه القسوة كلما أمعنت السير فيـ ـه سـ ـرق منك الروح.. جنود، وأبناء قبلي وبحري، ومجندون يبحثون عن سيارات تنقلهم حيث وحداتهم البعيدة، والشارع في قبضة الأصوات التي لا معيار لها يلوح مثل يوم الحشر.

حملنا النعش إلى الزاوية الصغيرة في انتظار صـ ـلاة الظهر وقفت أنا والأصدقاء على الرصيف ننتظر الانتهاء من صلاة الجنازة.

كان ظهري لمنزل كوبري ٦ أكتـ ـوبر الهـ ـابط إلـ ـى الشارع، أتابع سيل السيارات المندفع ناحية الميدان.

قال عم صدقي:

- لا أحد.. أسرته واحنا.

– الموت غادر، ويمكن الناس مخدتش خبر.

تركني أحمد وسحب خيري وعم صدقي مقتربين من باب الزاوية بهدوء أفعى تتسل مبتعدة، انسحبت الزحمة رويدًا رويدًا من الشارع.. بدا الشارع خاليًا تمامًا.. في دقائق قليلة لم يعد أحد هنا أو هناك.. لا طائر يرف، ولا حافلة تدرج مندفعة.. أحدق في رماد البيوت، وأرى صفرة الشمس فيها تهب هبة هواء الخريف المفاجئة فتكنس أرض الشارع، وتثير عفرة التراب، وتدور بعمود الغبار.

ما الذي يجري لي اليوم؟

كأنني ارتقي معراجًا في زمن صامت لأقبض على جناحي ملك الموت؟

خيّل إليّ لحظة كأنني أحلم... أو أنني خارج زمن المدينة.

كيف حدث لهذه المساحة من مدينة تعج بالخلق صباح مساء، أن تبدو خالية هكذا؟

مساحة من صمت.. مشهد من بناء قديم يكمن في القلب تشيع منه رائحة الخريف، وأنا أكمن في موضعي تختلط عليّ صفحات الكتب الموشومة بأضرحة الموت

الملونة.. أفعمت أنفي رائحة المرأة التي قابلتني على الدرج، وتنشقت من جسدها رائحة ماء الورد، والبخور، والزعفران، وعرقها الخفيف تحت الإبطين يثير دم ي، ويف تح أم امي مخادع اللذة.. أي موت هذا؟!.. رازح وثقيل، وأنا أمضـ يت عمري يطاردني الرحيل السابق للأوان لكل من أحببـ تهم.. ولدهشتي وجدتني أرتل شعر الضرير: أنا في المساء معشر القوم الضائعين.. دون جدوى.

انتزعت نفسي من الزناخة وأنا أتأمل معجزة الشارع.. لا أحد غيري رأى ما أراه.. أتأمل الفراغ من غيـ ر أقنعـ ة الحلم، متشبثًا بتلك اللحظة الاستثنائية للإمساك بلحم الوجـ ود العاري... إن كل مهارات الحكي لا تستطيع التعبيـ ر عمـ ا أحسه الآن.. لا تستطيع أن تجسد ما أراه.. أن تصف هـ ذا الوداع الملغز بسر اكتمال الحياة بـ الموت، والـ ذي حملـ ه أجدادي من أصحاب الطريق، الذين أمضوا أعمارهم يحملون في ضمائرهم الإيمان بالخلاص من الدنيا، طمعًا في شـ فاعة بلا ضفاف.

فجأة وأنا داخل هذا الوجود الملغز، استدرت لأنظـ ر منزل ٦ أكتوبر، والممرين بجانبه اللذين يصبان في الشارع

رأيت عددًا من الضباط يحجزون المرور، وكان صف السيارات الواقفة يكاد يصل حتى منتصف الجزيرة.

اندهشت عندما رأيت سيارة هوندا بيضاء تخرج من الممر اليمين أسفل الكوبري، وتركن بجوار الرصيف، فيما يفتح بابها ضابط.

نزل منها "نجيب محفوظ" وبصحبته "يحيى الرخاوي" وعبرا الشارع الخالي ناحية الجهة التي بها الزاوية.

رأيته وقد انطوى بدنه على ألم. يزم وجهه ويضرب أرض الشارع بعصاه ذات العقفة.. كان قد غادره زهوه القديم، وبدا السن في اللحظة مآخيًا للحزن، غادرت الرصيف حتى منتصف الشارع. وانتبهت إلى أن الأستاذ عندما رآني توقف وصرخ في وجهي قائلاً:

- مصطفى أبو النصر مات يا كفراوي!!.

قبضت على كفه، ولاحظت أن كفه السفلى ترتعش.. سرت بجواره نعبر الشارع.. كنت كمن يسمع صرخة من قلبه: أصدقائي في قلبي أحسهم في اليقظة والمنام، وفي الحياة والموت.

حينما وقف أمام باب الزاوية أطلق الضابط سراح المرور، فتدفقت في نهر الشارع السيارات.. خطا العم ناحية باب الزاوية ونظر حيث النعش يجثم في الوسط.. أتاه صوت الترتيل شجيًّا كأنه يقرأ على صراط الأبدية.

عندما خرج النعش من الباب الضيق توقف المرور، وعبر الأستاذ الشارع ليقف أمام نقابة الصحفيين ليأخذ عزاء الراحل، الذي سوف تحمله سيارة، تتقدم به في الزحمة متجهة إلى دار البقاء.

في الوقفة الثانية رأيت العم يدفع بذراعه مجهولاً، ثم يثبت نظارته على وجهه.

كنت أراقب النعش وهو يعبر الشارع، أنا الذي رأيت الكثير من أهوال الموت. كان الشارع خاليًا مرة ثانية، وفي قلب الخلاء أمامي، رأيت ذلك الدرويش الذي قابلني في الضحى في الجبانة الشرقية، يبرز من زقاق ضيق، يخطو في أسماله رافعًا شمروخه نحو السماء، صارخًا بأعلى صوته، مصلصلاً بأجراسه بتراتيل لم أفهم منها حرفًا، وعندما نظر تجاهي رأيته ينتزع أسماله، ومراياه وأحجبته، وقطع العظام المعلقة على صدره، ليقف عاريًا في نهر

الشارع مثلما ولدته أمه، داخل ملكوته المبجـ ل فـ ي أشد د المشاهد اكتمالاً، تشع من روحه الجديرة بنفسها تلك اللحظات – أقصى اللحظات – من التطرف، حيث العري، والشد مس، مشهد القيامة، وبركة الشيخ، وذلك الموت الموغل في أبديته.

ملكوت الظل

فتحت عيني متوجسًا، بعد نوم مضطرب.

كان الصوت يصعد من الشارع، وكنت أقاوم نعاسي ما أزال، وأحاول تأمل تلك الأيقونة المعلقة على الحائط لقديس راحل، ينيرها ضوء النهار المنفلت من تلك المساحة الصغيرة من الستارة على النافذة.

- يا سعيد.. اصحَ يا جدع.

أقاوم وجلي من سماع تلك الأصوات المفاجئة، التي تنتزعني من عز المنام، والتي تأتيني عادة على غير انتظار. أحاول تمييز الصوت الصاعد الذي يشيع فيه الاضطراب، وربما الفزع.

- صوت محمد!!

غادرت الفراش مسرعًا قاطعًا صالة البيت إلى الشرفة، وعندما نظرت منها كان محمد يقف في الشارع أمام سيارته البالية، رافعًا رأسه ناحيتي، وكانت الشمس تضيء وجهه. حين استفسرت منه عن الأمر، أشار بيده خطفًا:

- انزل بسرعة.
- خير؟

- انزل بقولك.

دفع بعصا الفتيس على السرعة الثانية، واندفعت السيارة محاذرة وسط صفي السيارات على الجانبين، كان شارع الطيران خاليًا هذا الصباح الباكر من رمضان، وهو ينقل السرعات المتلاحقة في اضطراب:

- فيه إيه يا جدع؟... مالك؟

من غير أن ينظر ناحيتي قال:

- عبد الفتاح مات.

وجدتني أزحف بجسدي على الكرسي بجانبه، مسندًا رأسي على حافته، وأنا أقاوم خدر المفاجأة الذي بدأ يتسلل إلى فقرات ظهري. سألته وأنا مغمض العين:

- حصل ده امتى؟.

- النهاردة الساعة أربعة الفجر.

شعرت بثقل الموت، ولم أعد قادرًا على أي نحو من التحرر من ذلك الإحساس.

كان محمد بجانبي قد زم فمه، وقد ارتسمت على ملامحه تلك الصورة من الحزن وعدم التصديق، والنفور من

الموت، وكان الهواء يطير شعره الأشيب المبعثر في الريح. كان يحدق في الطريق الخالي متوترًا، وحزيناً.

- اتصل بي الساعة اثنين بعد ذ ص الليـ ل.. ق ال يا محمد أنا تعبان.. تعالَ انقلني المستشفى.
- اللـ ه، هو يا جدع مش كان معاذ ا مـ ن ت لات أيام؟!.. مكانش باين عليه حاجة.
- كان بيخبي مرضه.. يمكن أنا الوحيد اللي كذ ت عارف.

خلفنا جامع "رابعة العدوية" ومستشفى التأمين الصحي، وانحرفنا جهة اليسار حتى وصلنا المستشفى. كـ ان الهـ واء ثقيلاً غير رطب، وزمته خانقة تقبض على الأعنة، والسـ ماء خالية من السحب، والسيارة تمرق على الطريـ ق الخـ الي، المشيد على جانبيه عمارات عالية.

ركن السيارة، وغادرناها على عجل، ودخلذ ا مبذ ى المستشفى، أفعمت صدري رائحة الدواء النفاذة، ورأيت على الجدران تلك الظلال الكابية في الممرات. بدا لـ ي المكـ ان مهجورًا مثل دار للمسنين، وكان خاليًا تمامً ا مـ ن البشـ ر. فكرت أنني أخاف من الأماكن المهجورة، وأنني كثيـ رًا مـ ا

أسمع فيها أصواتًا لا أعرف مصدرها، والممرات أمامي في هذا الصباح شاحبة ومعتمة.

- ده مفيش حد؟! تساءلت:
- الناس في رمضان، والموظفين لسه ما جوش.

توقفنا، وأشار بيده نحو حجرة من الحجرات، وقال لي كأنه يحادث نفسه:

- في الأوضة دي.

كان الباب مغلقًا، وصور على الجدار لنوارس بحرية، وأخرى مسطرة بالإرشادات والتعليمات، جلسنا على كراسي البلاستيك أمام نوافذ تطل على الحديقة. قال لي: إنه اتصل بزوج أخته، وإنه أخبره بالأمر، وإنه أشار إليه بأن يحضر معه المغسل والكفن أيضًا، ثم نظر تجاهي وقال لي: إنه أيضًا أخبر القليوبي وزمانه جاي. ووضع يده في جيبه وأخرج علبه سجائره وأشعل واحدة.

قلت متوترًا:

- وبعدين بقى! نهض واقفًا وسار خطوات في الممر الطويل. كان يرفع رأسه كعادته ناظرًا إلى السقف القريب. عاد بعد لحظات وقال لي:

- زمانهم جايين.

وجلس على الكرسي بجانبي.

أسندت رأسي إلى كفي. أنتشل وجودي من هذه اللحظة المفاجئة. خيل لي كأنني أطل من هاوية عل ى وادٍ فس يح، يخترقه نهر جاف، وطيور سوداء تطلق صد راخا مريعً ا، ضاربة بعضها بأجنحتها الخافقة وسط هذه البرية المفتوح ة على الخراب، ولدهشتي تأملت على صخرة وحيدة تجثم على الشاطئ طائرين يتصارعان، يتقدم أحدهما ويسحل بمنق اره عين الآخر الذي التاث من الألم، وهوى من فوق الص خرة ناحية ذلك الخراب.

انتبهت إلى محمد يلكزني في كتفي.

- القليوبي جه.

كان قادمًا عبر الممر ببذلت ه الرمادي ة، وخطوات ه المسرعة، يسبقه صوت نشيجه، وكلما اقترب من ا لاحظ ت احمرار وجهه وعينيه.

سلم علينا، ولاذ بركن قريب منا مواصلاً البكاء.

تذكرت أننا كنا منذ أيام بحديقة، "الاباس" حيث نلتق ي بين وقت وآخر. لقاءات غير منتظمة لكنها حميم ة، إلا أن

هذا اللقاء كان متوترًا، وكان عبد الفتاح على غير العادة وقد فارقته ضحكته المجلجلة التي تبدأ من زاوية فمه وسرعان ما تتسع حتى تشمل وجهه كله، علامة على فرح يشد به فرح الأطفال.

كان هذا اليوم صامتًا. تسقط "كاسكيت" من النوع الإنجليزي حتى منتصف جبهته. شعرت لحظتها، وأنا أتأمل شروده كأنه يخفي عنا سرًّا.

قلت:

فيه إيه يا عم عبد الفتاح؟

أجابني باقتضاب:

- ولا حاجة. أنت سيادتك شايف إيه؟.

ثم شرد مرة أخرى إلى بعيد.

- لأ فيه حاجة.. النهاردة مش عوايدك

- تأملني بعينه الواسعة لحظة، ورسم على شفتيه بسمته الساخرة، وقال لي:

- هو أنت بديك أهلك لازم تفحر في كل حاجة؟!

كسا وجهه الحزن فجأة، وسمعته كمن يحادث نفسه: أن واحدًا مثله قد عاش أكثر مما ينبغي، ولم يعد يليق به سوى

الموت. ثم أضاف بلغته المدهشة: واحد زيه جنحـ ـت منـ ـه الملعونة وحرنت، ونامت في الخط.

لاحظت أنها المرة الأولى التي يتحـ ـدث فيهـ ـا عـ ـن الموت، انتبهت له لكنه أطلق ضحكته المعهودة وقد عاد إليه فرحه. من بين موجة الفرح المفاجئة أخبرنا، أنـ ـه بـ ـالأمس رأى حلمًا غاية في الغرابة قال إنه شاف أباه الله يرحمه يبرز من البحيرة في البلد وينادي عليه، وإنه كلما اقترب منه ظهر في مكان آخر. قال إن البحيرة في الظهر كانت تشبه الجليد. وإنه كان يلهث من الجري خلف والده. وقال إنه زاد عجبـ ـه عندما رأى كل من كتب عنهم يسيرون خلف والده في رحلة لا يعرف معناها. عبده الشاعر وعم محمد المغـ ـلاوي وعـ ـم رضا الخفير وأحمد العرباني وياسين الفران وأبنوب أفنـ ـدي مدرس التاريخ وأبو هبط والفشار.

وعاد يضحك ضاربًا ركبته وواضعًا يده الأخرى خلف الكرسي، وقال:

- تخاريف.

تذكرت أن روايته الأخيرة عندما صدرت، كنـ ـت قـ ـد احتفيت بها احتفاء يليق بها، كتبـ ـت عنهـ ـا أحسـ ـن كتابـ ـة،

ومررت بها على الأصدقاء واعتبرتها إحدى الروايات النادرة في أدبنا المصري، كانت رواية عن الزمن والناس في قرية مصرية، تكمن هناك في أبديتها على بحيرة قديمة بناسها وعاداتها، وإرثها الفادح من طقوس الحياة اليومية الملغزة بالسر، وزحمة البشر الذين يخطفون رزقهم المعلوم منها، خافضين أجنحتهم على الستر. حياة للحظات نادرة من الزمن المصري الذي يحول الأشياء إلى كل موحد "شارب من بعضه ومن مسقاة واحدة" ليلتها كنت أتهيأ للنوم في الهزيع الأخير من الليل، عندما جاءني صوته عبر الهاتف.

هل كان يبكي؟ الصوت منكسر، يخرج من كهف عميق، متهدجًا وغير متواصل.

قال لي ليلتها:

- أنت فاكر يا ابن أمك باللي أنت بتعمله ده هتحببني في الدنيا.. ما خلاص خلصت.

روعت لحظتها، وقد طار النوم من عيني عندما سمعته يضع السماعة من غير أي تعليق، اختلطت عليّ الأمور وأنا أتخيله في غرفته الواسعة، وبين كتبه التي

لا تنفد، وهو يشغل أسطوانة "باخ" الذي كان يعشقه إلى حد الجنون واعتبره من السلالة النادرة من هؤلاء المبدعين.

بدا لي كأنه كان يبكي، وسط صوت الموسيقى الذي يغمر المكان في شدو يصعد من شرفة البيت إلى أنحاء الشارع.

انتبهت على يد زوج شقيقة عبد الفتاح الممدودة:

- عظّم الله أجرك.

نهضت واقفًا وصافحته آخذًا عزاءه. كان المغسل يقف بجانب باب الحجرة، يحمل حقيبة من قماش بها أشياؤه، وعدة غسله، كان رجلاً قصيرًا، لحيمًا، تبدو ملامحه المستسلمة مثل ملامح رجل تائه، يرتدي جلبابًا رماديًّا من الصوف ضيق الكمين، مشغولاً بقيطان أسود على فتحته حيث يطل الرأس الكبير ذي العينين الواسعتين، أدهشني في الرجل شروده المطلق، أحسست أن حالته ربما تكون امتدادًا لخبرته طوال ممارسته مواجهة الموت:

- نتوكل على الله.

قال، واقترب ناحيتي. قلت:

- نتوكل على الله على فين؟

نظر تجاهي باستغراب، واتجه ناحية زوج الأخت:

- ما هو أنا عايز واحد يساعدني.

سأله محمد:

- يساعدك ازاي يعني؟

- في الغسل.

- ننادي على حد من المستشفى.

- نادِ.

برزت امرأة من أقصى الممر من الواضح أنها إحدى الشغالات بالمستشفى، تلبس ثوبًا أبيض، وطرحة بيضاء من قماش خفيف. كانت قادمة تحمل دلوًا ومقشة. حين اقتربـ ت منا سألها زوج الأخت:

- هو مافيش حد في المستشفى يساعد المعلم؟.

- لا مافيش.. كلهم لسه ماجوش.

قال محمد:

- طيب ما تدخلي معاه وتساعديه في الغسل.

صاح المغسل بصوت جهوري مشوحًا بيده:

- يا أستاذ حرام.. مرة تغسل راجل.. حرام.

ثم قال نافد الصبر:

- ما تخلصونا بقى. لازم حد يدخل معايا يساعدني.

سكت لحظة، وفتح سوستة حقيبته، ثم رفع رأسه وقال:

- واحد منكم يدخل معايا. هي الدنيا هاتتهد؟!!

اختلجت أبداننا، وتبادلنا النظر في لحظة خاطفة. تكاثف الصمت.

حل مثل ليل. واللحظة موغلة وتمتد فيما بيننا. زعق المغسل:

- مالكم انتو هاتغرقوا في بحر؟.. واحد يدخل معايا وينتهي الأمر. ياخد ثوابه.

قلت لمحمد:

- ادخل.

نظر لي بعداء، وقال بنذالة منقطعة النظير منهيًا الأمر:

- أنت لو قطعت رقبتي.

قلت للقليوبي:

- ادخل أنت.

قال لي مشيرًا ناحية صدره:

– ما أنت عارف، أنا عندي القلب.

اندفع المغسل ناحية الحجرة وفتح بابها، ودخل، خطوت أنا وراءه مستسلمًا وأنا أنظر تجاههم لكنهم أعطوني ظهورهم، واتجهوا ناحية النافذة ينشغلون بالنظر للخارج.

حين دخلت واجهتني عتمة لا يبددها الضوء الشحيح القادم من النافذة، أشعلت النور، ورأيته ممددًا على سرير صغير، مغطى جسده بملاءة بيضاء مثل الكفن. تذكرت أن محمد كان أخبرني في السيارة، أنه كان ينهض في الليل فجأة، يود الذهاب إلى دورة المياه، لكنه بدل أن يسير في المساحة الخالية بين السرير والحمام كانت تختلط عليه الأشياء، وكان جسده يصطدم بالحائط. قال لي محمد إنه كان يتوقف ويسأل نفسه: هو فين؟ وإنه عندما كان يقوده ناحية السرير، وإنه عندما يرقد كان يقول له: الله هو أنت لسه صاحي؟ وكان يسمعه يحادث نفسه مغمض العينين: مَن بمقدوره أن يحصي الأيام، ثم يصمت لحظات بعدها يفتح عينيه وينظر تجاهه ويقول إنه يموت.. وبعدها مات.

تجلى لي الجسد وحيدًا، في حاجة إلى رفقة، كان الجسد النحيل ممددًا على السرير. كان الموت قد سلبه كل

شيء. عندما كشفت وجهه كانت خطوط تتقاطع على الجبهة مثل المصير، كفنه الرجل ولفه في مفرش من الشاهي، وختم شغله بالدعاء للأحياء والأموات، ثم قرأ بصوت مرتل:

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلا. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

ارتديت ملابسي وخرجت من الحجرة. سمعت ساعة المستشفى تدق، ولاحظت حضور بعض الموظفين. اقتربت من النافذة صامتًا، ونظرت على الحديقة. كان النهار معتمًا، وشبورة الصباح لم تتبدد بعد، رأيت عن قرب ملجأ الأيتام يواجه المستشفى، ورأيت في الفناء أطفاله يصطفون ومعلم الموسيقى يقف تحت علم البلاد، يمسك بيده عصا القيادة التي لها رأس من نحاس أصفر، يشير بها نحو الأولاد العازفين الذين سرعان ما عزفوا لحنًا شجيًّا لفالس قديم يصدح الآن تحت سماء النهار بنغمات احتفالية في ضحى رمضان.

وحين حملته السيارة ومضت في الطريق إلى قريته ظللنا نرقبها وهي تبتعد حتى غابت عند المنحنى البعيد.

بعد الأربعين أخبرني محمد، أنه عندما كان يفرز أشياءه.. كتبه وأوراقه وبعضًا من مخطوطاته.. عثر داخل

ظرف متوسط الحجم على صورة بالأبيض والأسود صورها عبد الفتاح بنفسه، وكانت الصورة تضـ م جمـ ـال وإبـ ـراهيم ويوسف والدسوقي وغالب ومحمد وعدلي، ورجلاً لم يعرفه أبدًا. قال لي إنه عندما قلب ظهر الصورة وجد عبد الفتاح قد كتب خلفها: أخذت هذه الصورة في العام ١٩٦٨ لبعض من أحببتهم، ثم كتب ملاحظة: أنا وحدي من بين خلق الله مـ ـن الناس الطيبين الذي عاش حياته يحب ما يفعله.

الخضرة أم الحلبي

حين فتحتُ الباب، رأيتُها تقف في مستطيل الشمس الذي يفرش أرض الردهة، وينير شجرة الفل المزهرة، والنباتات المنزلية التي تنثني متحولة إلى فروع زاحفة على سور الحجر الذي يسوّر بيتنا القديم في حي الجمالية.

لم أعرفها أول الأمر.

كانتْ قصيرة وسمينة، سمنة آخر العمر. تلبسُ ثوبًا أسود من الحرير الذي كلح ولكنه يحتفظ بعز قديم، وعلى رأسها طرحة نظيفة تنسدل حتى ركبتها، وبيدها صرّة تفوح منها رائحة فطير صابح.

ما إن تنشقتُ الرائحة حتى جاءت البلد القيعان القديمة، ودسم الإدام، وعجنة الجبنة بالزبدة الفلاحي ذات الدسامة، والطعم الذي لا يزول، و"شروقة" الفرن المتوهجة بنار الحطب وجلة الحيوان، وعود الحديد يدفع بقطعة القماش المبلولة لكنس "عرصة" الفرن وتنظيفها لاستقبال الفطائر المعجونة بالسمن، ونسوة الدار يتحلقن حول فتحة النار يضربن بالمطارح وسط هرج الخبيز وفوح الفطير يعبق في المكان.

لما رأتني أسد الباب ببدني، بوجهي اسـ تفهام جعلهـ ا تبتسم مما جعل وجهها يكتسي بـ ـالورع، والأنـ س الغـ ـائر، وعينها تمتلئ بالحنان.

"كأنني أعرف الوجه، قبلتُ يومًا الخـ دين، ومسـ حتُ هاتين العينين، وجه في القلب، ولصاحبته قرابة الدم، وألفـ ـة باقية".

سألتني:

- مش دي برده دار الأستاذ علي عبد الغفار؟
- أيوه أنا علي.
- يا نضر أمك يا ضنايا.

وسحبتني من ياقة جلبابي في جذبة مفاجئة، وغيبتـ ـي في دسامة صدرها تضغطني في شوق وألفة، تصيح بصوت مرتعش: "والله زمان يا علي، والله زمان".

تركتني لحظة تأملت فيها وجهي كانت دموعها تنساب من عينيها وهي تهتف بي:

- واللـ ـه وكبرت يا علي وشعرك شاب.

وضمتني مرة أخرى.

أفعمني الحضن، وتواصل تيار الحنية مندفعًا من دم لدم، مَن تلك المرأة التي أحس بها في دمي ولا أعرفها تيقنتُ أن ثمة رائحة تكمن هناك، في ذلك الصدر الذي يبثني شوقه ويهب عليّ من تلك المنطقة الغامضة من روحي، من ذلك الوعي البعيد، رائحة ألفتها يومًا تأتي من ذلك الزمن السحيق رائحة طازجة ثابتة في أنفي وعقلي كالشمس والقمر، كالصلوات المتأخرة في الليل الشتوي.

تساءلتُ: أي رائحة تلك؟ كأنها راحت مني، مثل كل الأشياء الطيبة التي ضاعت، لكنها برغم كل شيء أحس بها في القلب مثل أول اكتشاف للدهشة، والتعرف على الصوت وصاحبه، وإدراك بدايات المواسم، وعشار البهيم.

همستُ: تلك الرائحة أعرفها، تأتي من أقصى الماضي البعيد، وكلما تأملتُ ملامحها تجسدتْ اليفاعة القديمة، والشباب الغارب.. رائحة لبن حي.

صرختُ من روحي لما شعت الرائحة بقلبي ونوّرت بصيرتي:

- أمه خضرة.. أمه خضرة.

وغيبتها أنا هذه المرة في حضني.

سرنا عبر الممشى، أحتوي كتفها بيدي، ورائحة زهرات الفل تستحم في ضوء الشمس، ومقاطع من الضوء تفرش السور، نسمع الأصوات مختلطة بزحمة الشارع، برائحة توابل الحيِّ القديم.

توسطنا صالة البيت الواسعة التي تفتح عليها حجرات المنزل وينتهي الممر بالمطبخ ودورة المياه، كانت كنبات خشبية تستقر بجانب الجدران، وعلى الأرض سجادة بلدية مفروشة وقد انمحت رسومها، ومزهريات لنباتات متسلقة تهبط من السقف، وصور على الجدران لراحلين.

تعلقتْ عينها بصورة على الجدار:

- أمك أمينة، وأختك زكية.

وأضافت بعد أن مسحت الدار:

- زي داركم القديمة في البلد.

ووضعتْ صرّة الفطير على مائدة بجانب الحائط.

- والله زمان يا أمه خضرة.

قلتها وأنا أتأمل كبرها المتأخر.

قالت:

- وأنت هنا بتقول عِدُّولي!!.. سنين.. نسيت فيها البلد وأهلها.
- أبدًا والله.. أشغال.. والدنيا زي ما أنتِ عارفة تلاهي.
- تنسى أمك يا ولد..تنسى البز ده.

وضربتْ صدرها بكفها فسمعتُ قرع الطبل، وامتلأت رئتاي بهواء نقي هب عليّ من هناك، مخترقًا كل السنين التي أبعدتني عن تلك السيدة التي تظهر فجأة وكأنها صورة من كتاب قديم.

- خلّفتْ؟
- ولد وبنت.
- كبار.
- البنت في الثانوي، والولد لسه بيرضع.

لما قلتُ: "لسه بيرضع" ابتسمتْ، ورأيت تجاعيد عند زاوية فمها تتقاطع، وتشكل خطوطًا تعكس مدى هرمها.

قالت:

- حسيت بدنو الأجل، وأن الباقي من العُمـ ـر قُليّـ ـل؛ قلت آجي وأشوفك ما دمت حطيـ ـت بـ ـدل قلبـ ـك حجر.

طأطأت رأسي، وأمسكتُ بشـ ـحمة أذنـ ـي وابتسـ ـمتُ خجلاً. قالت:

- تمام زي ما كنت وأنت عيّل لما كنت تعمل حاجة كنت تطاطي رأسك وتشد حلمة ودنك، خسارة فيك اللبن اللي رضعته من بزي.

ناديتُ على زوجتي وجاءتْ من المطبخ قدمتها للخالة، "خضرة" فنوّر وجهها بترحاب سلمتْ عليها واحتضنتها.

- يا أهلاً يا أمي.. علي دايمًا في سيرتك.

جلستْ وقد أفعمها الحنان، وبدتْ مثل طفلة نشوانة.

استأذنت زوجتي وعادتْ للمطبخ تبعتُها وطلبتُ منهـ ـا إعداد غداء طيب يليق بشرف امرأة الزمن القديم ابتسمتْ في وجهي وأزاحتني من المطبخ وأمرتني أن أعود حيث السيدة.

هبتْ من النافذة حزمة هواء باردة، وسادتْ لحظـ ـات من الصمت رأيت الخالة تغفو وقد أسندت رأسها إلى ظهـ ـر

الكنبة، يرتخي فمها فيما تصدر تنفسًا منتظمًا ويداها الصغيرتان ذات الأظافر القصيرة تنامان في حجرها.

تركتُها وأغمضتُ عيني.

رحتُ أتقهقر إلى بعيد أعود إلى سنوات كانت فيها الخالة سببًا للحياة.

بمقدورك أن تستدعي ما تريد، ما تحب، أن تتأمله، لكنك لا تستطيع الهرب مما يود أن يطفو هو. ثمة لحظة يفاجئك شخص ما في لحظة عابرة فيوقظ في نفسك حيًّا مما كنت تظن أنه مات إلى الأبد.

عدتُ لتلك الأيام التي تتشكل في الذاكرة مثل سلم الموسيقى جاءت بها الخالة "خضرة" تحملها بين ذراعيها مثل كومة ملابس قديمة لها رائحة خزين الأشياء.

كانت هناك يومًا امرأة أحبتني عوضًا عن الموت والألم.

وبدلاً من أن تعدو مهبولة على الجسور، وقد شقت ثوبها حتى الذيل وبان لحمها للعراء، أو تجلس على كيمان السباخ شاخصة نحو سماء مفتوحة، أو تنطلق عاوية في الليل

مثل ذئبة، تناجي القمر، وتتحدث مع الريح، أو تلبد جاثمة على مصطبة مقام الولي وهبتني حبها بلا أجر.

عرفتُ منها بعد ذلك أن النار كانت شعللت في دارها وأكلت ولديها "الحلبي ونور الدين" كانت تقول لي: لولاك لكنت انهبلت وراح عقلي مني.

كنت قد ولدتُ قبل مصيبتها بشهر جئت للدنيا بعد عيال لا يعيشون، يشرّف الولد وسرعان ما يخطفه الموت وكأنها لعنة أصابت أمي، حتى أنني حين ولدتُ نشف لبنها يومها قالوا: إن سلفتها كبستها ودخلتْ عليها حائض قبل سبوعها، وبرغم كل الوصفات التي تفك السحر، وتبطل العمل، إلا أن لبن أمي راح منها على غير موعد قالت عمتي "مريم" يومها: هاتوا "الخضرة" أم الحلبي، النار أكلت أولادها، ترضعه وتراعيه، وابقوا شوفوها بحاجة.

قالت لي بعد أن وعيت: لما دخلت عليّ في المقعد العلوي، وكنت أنا على الأرض ملفوفًا في شال من حرير، أرفس الهواء بقدمي، واملأ الدنيا بصراخ جوعان، وأنها عندما رأتني قطعة من لحم أحمر، وتأملتْ ذلك الخال الذي

يتوسط خدي حنّتْ واندفق لبنها من نفسه وغرّق ثوبها قبل أن تلمسني.

قالت لي أيضًا: عندما قبضت على صدري كنت نهمًا مثل جرو من يومها أحببتك وكنت العوض عن ولديّ اللذين أكلتهما النار.

كانت كلما حكت لي هذه الحكاية بكت بألم.

وكنت بعد أن وعيت وعرفت ما يجري حولي أراها جالسة على عتبة الدار قبل دخول الليل، لحظة المغارب، تمسح دموعها بطرحتها وتطلق عديدًا لا أعيه، وكان وجهها منتفخًا بالألم، وذقنها يرتجف بينما ينكمش جسدها في بعضه.

كانت تبدو مثل المحمومة وقد اشتعل بدنها، لحظتها كنت ألقي بنفسي في حضنها فتلسعني النار. أسألها: مالك؟ وكانت تجيبني: أبدًا سلامتك، ثم تجفف دموعها وتواصل اللعب معي.

كانت تعمل لي الأحجبة المكتوبة بحروف حمراء لا أعيها، ومزينة بنجمات وإشارات، وتضع معها قطعة من عظم شائه مغلفة بقماش يلمع بالوسخ، أعلقها بكتفي فيستقر الحجاب والعظمة الشائهة تحت إبطي فإذا ما جريت سمعت

احتكاكهما بجسمي وكانت تقول لي بصوتها الحنون: الحجاب حافظ من العين اللي تفلق الحجر، وابني محفوظ من شد رها ثم تواصل تقبيلي في نهم.

كانتْ تحممني كل صباح كنتُ في الخامسة، أقف وسط الطشت النحاس مكشوف البدن، وبجانبه إناء ممتلئ بالمـ ـاء يصعد بخاره حتى النافذة المفتوحة على فناء الـ ـدار أسد مع هرج العيال، وصوت أمي يأتي من النافذة: حاسـ ـبي عليـ ـه يا خضرة لتكون الميّه سخنة، فترد عليها غاضبة: خليكي في حالك مالك أنتِ وتدفع بكفها تحت إبطي تدغدني، ثم ترفعني عاليًا وهي تصيح: هذا ولد مبارك سيكون ممن يرضى عنهم الله وكنت أنظر من النافذة على البراح فأرى سرب الطيور، والشجر على النهر، وأهل الدار المشغولين بالخزين.

أذكر أنها، وبعد أن كَبِرتُ، كانت تراني قادمً ـا مـ ـن المعهد الديني عصر هذه الأيام أسير في شارع البحر، أرتدي قفطاني الشاهي المخطط، وكـ ـاكولتي الصـ ـوف الجبـ ـردين، وأقلوظ عمامتي ذات الشال النظيف وأحمل بيدي حقيبة كتبي الجلدية، وتكون حاملة جرّتها عائدة من النهر ترفـ ـع ثوبهـ ـا قليلاً عن ساقها ما إن تراني أسير شيخًا صغيرًا تحـ ـف بـ ـه

البركة والأبهة، وذلك الجلال الذي يثيره شيخ صغير، يخطو خارجًا من أول الأبواب حتى تصيح مشيرة ناحيتي لامرأة تجاورها وتهتف بها: الشيخ الجميل، مولانا اللي هناك دَهوّت أنا عملته من لبني.

وحين يخرج لي غلام من الأشقياء ويصرخ في: شد شد العمة شد، تحت العمة قرد تصرخ فيه شاخطة: اخرس قطع لسانك ولسان اللي خلفتك.

عند ذلك أنتبه لها، وأحث من خطاي حتى ألحق بها لأعطيها كفي، ونسير معًا حتى نفترق وتختفي عن عيني داخل الزقاق الغويط.

حتى الثامنة مكثتُ لابدًا في ذيل "الخضرة"، حتى بعد أن انفصلتْ عني وسكنت دارها على النهر، تسعى لرزقها بين الحقول، جمع القطن أو زرع الذرة، والخدمة في الدور عند القادرين في غياب المواسم، وأزمان الحصاد، وشح الرزق في الزمن الصعب.

وكانت تعود لدارها وتجدني نائمًا في غيابها أمام الباب فأسمعها تتمتم: اسم النبي حارسك وصاينك وترفعني وتدخل بي إلى الدار.

انتبهتُ على صراخ ابني الرضيع يأتي من غرفة النوم متواصلاً وحادًّا.

سمعتُ أمه تنادي:

- الولد.. من الصبح على دا الحال يا دوب.. ن ام ساعة.

نهضتُ، ودخلتُ غرفة النوم وحملتُ الولد إلى صدري كان ينتفض ويشهق كمن خرج من الغ رق، وك ان وجه ه مزمومًا ومحتقنًا بالبكاء همستُ: مالك؟ كان يتشنج على نحو غريب جاءت أمه وأخذته إلى صدرها وألقمته ثديها فأزاح ه وواصل البكاء في عناء متواصل حملته إلى صدري ومشيت به في الصالة أهدهده، لكنه لم يصمت وظل يضرب بقدمي ه في عصبية ضقتُ به فأنزلته إلى الأرض وتركته بالقرب من المطبخ يواصل عويله.

جاءني صوت الخالة "خضرة":

- ماله؟

- والله ما أنا عارف آهو على ده الح ال، إذا ع يّط يستمر حتى يفطس. تركتُ الولد ف ي الص الة

ودخلتُ إلى المطبخ أساعد زوجتي في تجهيز الغداء.

كان الشارع في الخارج صاخبًا، وصوت أذان العصر يأتي من مئذنة مسجد، "الأقمر" وعويل الطفل متواصلاً كنت أحاول الهرب من بكاء الطفل.

مر وقت انتهيتُ من بعض الأشياء، لكنني لاحظت انقطاع صوت البكاء، وحلّ على البيت سلام، وأحسستُ كأنني في صحن مسجد قبل المغرب اندهشت، وخرجت من المطبخ أبحث عن الولد الذي اختفى تمامًا سرتُ أنظر في الأركان، وتحت المكتب، وفي غرفة النوم أين ذهب الولد؟

اقتربتُ من الخالة "خضرة" ورأيتها تضمه إلى صدرها – نفس الضمة القديمة – وقد أخرجتْ ثديها اليمين من تحت الثوب وألقمته إياه فيما يتشبث الولد به كجرو صغير، صامتًا ومسترخيًا كمن في ملقف هواء.

ذهلتُ مما أرى وكأنني أطل على مشهد من مشاهد يوم القيامة.

ما لا يليق بقاتل أجير

الفصل الأول

مشهد بحجم ما يُرى

هكذا رأيتهم يأخذونه...

وحين رأيتُ اضطراب أبـي التـبس علـيّ الأمـر، وأدركتُ أنه في محنة.. قبض الطويل، الذي له رقبة الجمل، والمعمم بعمامة كبيرة بلون صوف الغنم، يتدلى طرف شالها حتى صدره، وحين تكلم رأيت عينيه تبرقان في شعة نـور كهرباء المولد.

رأيته يجذب أبي من طوقه، ويسحبه خلفه مثل ذبيحة، وأبي يتبعه منحنيًا قليلاً للأمام، وشعرتُ كأن وجهه ينضـح بالعرق فيما يدفعه الآخرون من ظهره.

كنتُ أقف خلف الخيمة، يأتيني من بعيد صوت قـرع الطبل، وصهللة المزامير، وذلك الغناء الذي يرجـف قلبـي صاعدًا من الساحة المنورة بالنور، وزحمة الأناشيد.

لمحتهم يبتعدون، ثم يتوقفون، ورأيت أبي يجثو علـى ركبتيه، ويرفع رأسه في استجداء ناحية الرجل المعمم، الذي

يحمل على كتفه رقبة الجمل، متشبثًا بثوبه، وكأنه يسـ تعطفه طالبًا منه السماح، إلا أن الرجل ومعه آخـ ر رفعـ اه عـ ن الأرض وبصقا على وجهه.

حين سمعتُ نهنهة أبي، روعني الأمر وتلفت حـ ولي باحثًا عن مغيث، وخرجت من خفاء الخيمة، وسـ رت فـ ي الظل إلى أن أدركني النور، وحين اقتربتُ ممن يسلبونني أبي صرخت:

"آبه.."

انتبه الجمع ونظروا ناحيتي، وقالوا "الولـ د" لحظتهـ ا رأيتُ أبي يشير ناحيتي ويصرخ فيّ "ارجـ ع"، ورجـ اني ألا أتبعه.

انحرفوا اتجاه الجسر عابرين القنطرة الخشـ ب وفـ ي حضن دغل الشجر توقفوا كان أبي مطأطئ الرأس، وذراعاه متهدلين وكانت أنوار المولد تكشف رقعة من السماء، وتخفي عن عيني النجوم، ورائحة شي اللحم والغبار، وأبـ ي يسـ ير حاملاً على كتفه سنينه، وكنتُ خائفًا ومرتجفً ا، ولـ م أكـ ن أعرف ما الذي سوف يفعلونه بأبي؟

سمعت طائر الليل يشق السماء مثل النذير، وأبي يستعطف:

"علشان خاطر أولادي"

جاءني صوته مفعمًا وحزينًا.

بوجل شققتُ طريقي عبر السكة التراب، واختبأت بجانب الجدار القديم.

خلف كل سماء، سماء أخرى، والخلاء أمام أبي لا ينتهي، موحشًا ومسكونًا بتلك الأصوات السرّية التي تتردد في الأنحاء، وأصوات هرج المولد وتسابيح المواجد بالسير، والمواعظ الحسنة، وانداياح النغم في الليل يجيء بلا ونس فلا يستر خوفي، ولا يخفي عني رعب أبي.

"علشان خاطر النبي.. علشان خاطر ربنا والليلة المفترجة".

رأيت لمعة رأس البلطة، الذي أخرجها الطويل الذي له رقبة الجمل، والذي اشتهر في الجيرة بأكل الأكباد حية، وضحكته التي تشبه جرش الحجر، وهوى بالبلطة على رأس أبي، خايلني الدم، ينفجر فيعطي للنور البعيد لون حمرة الشفق وحين سمعت الآهة تختلط بغرغرة الموت، أدركتُ أن

عظام أبي ودمه يختلطان بالتراب، ومع تـ ـوالي الضـ ـربات المنذورة التي تخلص أبي من ألمه، غبت عن وعيـ ـي حتـ ـى عثروا عليّ في النهار بالقرب من جسـ ـده، لا يفصـ ـل بـ ـين حياتي وموته سوى مساحة من تراب الطريق.

الفصل الثاني

حزن مهيب فوق تحمل الروح

بعد انقضاء كل تلك السنين، ما يزال يتذكر بوضـ ـوح تلك الليلة التي استقرت في ذاكرته مثل جرح، حينمـ ـا كـ ـان صبيًّا أخضر العود.. ينظر من النافذة على الحقول، ويـ ـرى الدواب والناس، والشمس الطالعة، وأمه خلف ظهره تتشـ ـح بسوادها مثل ندّابة في ميتم.. حجر الرحى في الساحة وبئـ ـر محفورة في المجاز، وأغنام تجتر في الصباح علفتها.. وأنت لا تستطيع دفع الإثم عن دمك.. وروحـ ـك المعذبـ ـة طـ ـوال السنين بالعار المعلن، ودين الثأر في رقبتك مثل تميمة.

منحته الأيام طوله الفارع مثل أبيه، وعينه لها برقـ ـة وحدّة السيف، وسنوات من نسخ صوت الأم يغذي في الـ ـدم عدم الرحمة والكراهية "إياك والنسـ ـيان.. دم بـ ـدم.. وأنـ ـت

وحدك تحمل على ظهرك قهر أبيك، وموتـ ـه، علـ ـى جسـ ـر التراب وحيدًا من غير رفقة".

يوغل في رجولته، والزمن منحـ ـه الهيبـ ـة، والـ ـرأس مرفوعة فوق هامات الرجال.. ستكسر العجـ ـوز الصـ ـمت، وستخرج من حجرتها مثل غراب بهيئتها الآدمية الثكلى عبر سنوات مضت يعكس وجهها المغضن ذلك الاقتران المفجـ ـع بالحزن الذي لا يمضي أبـ ـدًا، وبصـ ـدرها تفـ ـور سـ ـنوات انتظارها الطويل.. فرن يشتعل بنار الوقيد، وصهد يخرج من الفتحة فيلهب وجهه.

"الدم وشربته الأرض مثل الحزن.. من ينسَ ثأر أبيـ ـه يعش كعاهرات الموالد، وأنت ولدي الوحيد، ربيتك حتى تعيد لي نظري الشحيح، وتوقف شعفة القلب بالنهار والليل".

حزمة من ذكريات لا تفارق خيالـ ـه.. وأبـ ـوه يـ ـتلفح بعباءته فاردًا في النهار وجهه اليقظ.. مهر شـ ـاهق، وجـ ـرو صغير، والأب يرفعه على ظهر المهر وقـ ـت العصـ ـاري.. انتبه.. ميزان الروح من ميزان الجسـ ـد.. والـ ـركض علـ ـى السكة فوق ظهر مهر غشيم يتطلب الاحتراس.. احتـ ـرس.. المهم تقطع المسافة، وأنت موتك بداخلك.. اطرده بالشـ ـجاعة

وعدم الخوف.. ارمح على الطريق، وألحق بالشمس الحرة، وعد بالبهيم من الغيط البعيد.

ويعدو المهر الأشهب على جسر مصرف "جادو" مثيرًا نفرة التراب، يسمع صوت الركض، وإيقاع ضرب حـ وافر الحيوان، وأنفاسه حارة وساخنة فيما يفرد ذراعيه في الـ ريح تاركًا مقود الحيوان.

أبي من علمني صغيرًا سر المواسم.. من كان يشد ق زحمة الرجال متلفعًا بعباءته وبيده عصاه فتوسّع له الأيـ دي طريقه حيث مجلسه الحسن، المشمول بالأبهة والكبرياء.

يضع أمام الحيوان خضرته، ويخرج مـ ن الحظير رة حاملاً طاجن اللبن بعد حلبة الصباح.. والأوادم في الطريـ ق للغيطان، وصوت من رفقة أبيـ ـه يأتيـ ـه!! يسـ عد صـ باحك يا نعمان، وألف رحمة لأبيك في تربته".

تطعنه التحية في جوفه.. خرجت زوجته صغيرة السن من القاعة ووقفت على العتبة.. راقبها وهي تنظر ناحيتـ ـه، وفي أثرها خرج من وسط الدار طفل رضيع يحبـ و تجـ ـاه أبيه.. حين اقترب خطفته زوجته ورفعته حتى عين الشـ مس

يستحم في ضوئها، وكانت زوجته تدفع عن روحها إحساسها بالمقدر والمكتوب.

سمع من الداخل حديث الأم "ولد جدع ميت" أحسن من "ولد عايش في النسيان".

صرخ بصوت جريح تردد في الدار:

"هاعملها يا أمه.. هاعملها".

الفصل الثالث

ليل من دم وماء

كان يمضي نحوه، صوب أرضه، هناك حيث بيته وسط مزرعته، في خلاء ليل يتوجب فيه القتل، وحصد الأرواح.

تكبر الضغينة وتلتف بالقلب مثل أفعى، وأنت تحث خطاك مستترًا بالظلام، وخلو الطريق من بني آدم، حيث لا شاهد ولا مشهود.

السلاح الآلي معلق في كتفه محشو بخزينة كاملة من الطلقات، وقدماه تغوصان في التراب تاركة على الأرض علامات مثل حوافر حيوان ضليل.

اخترق صف الجازورينا مغادرًا السكة الزراعية، واستلم المدق الضيق بين زراعات الفاكهة والنخيل.. من بعيد تأتيه أصوات ماكينات الريّ، وأصوات العربات قاطعة الزراعية في طريقها للمدينة البعيدة، وصرخة الطائر الصحراوي صاعدة للبعيد.

كان وهو نحب في طريقه، يستجمع شتات روحه، وهو يوغل في ليله الحاسم، ويطمئن نفسه أنه في طريقه لشفاء روحه.. يدفع عن خياله ما تبقى من صور قديمة، باقية، آن لها أن تذهب.. خرج فلاح من بستانه وحين رآه ألقى عليه السلام فلم يجبه.. تركه في حاله ودخل أرضه وكأنه لم يره.

كان كل حين يحدد اتجاهه في الليل حتى لا يضل "حل الأوان ولكل زرعة حاصدها".. توقف مصغيًا للصوت.. أدرك أنه هو من يتكلم فواصل حث المسير.. لا شيء سوى السماء تلوح من بين الفروع، والحياة ساكنة، وغامضة، وغافية بين يدي الليل.. ما كان عليه أن يغدر بأبي.

عبر الترعة الصحراوية وصعد تل التراب هابطًا من الناحية الأخرى.

تجنب الطريق المألوف، وخوض في الم دقات غي ر المطروقة.. فكر أنه لو ذهب مباشرة صوب البي ت لربم ا لمحه الخفير أو أحد المزارعين.. عليه أن يجثم خل ف ت ل الرمل ثم يغادره، مجتازًا حقل الذرة ليصل إلى حديق ة داره المزروعة بالفاكهة والنخيل، ثم يتسلل حتى شرفة الدار ويراه جالسًا أو غافيًا في الصالة المعرشة باللبلاب وشجرة العن ب المداد من الأرض حتى سطح الدار.. "ليس موت أبي، ب ل فجيعته هو".. تذكر السنوات كلها التي ن اء بحمله ا عل ى ظهره، وانتظاره الطويل.

الليل في الأرض الجديدة مشبع بهواء الخريف البارد.. حين كان يحث خطاه كان يتذكر والده.

تيقن تمامًا من طريقه، ورأى على يمينه مراحًا لأغنام غافية، وراعيها يخب في نومه، وحين لمحه الكلب الح ارس نبح وأخذ يعدو ناحيته.. ستر نفسه بحقل الذرة، وسار مغادرًا صخب الكلب، وغفوة الراعي.

لاح ضوء البيت من بعيد، يستره صد ف الج ازورين والليمون وشجر الحديقة المثمر.. ض وء ش حيح لمص باح

غازي معلق على الواجهة، وبالصالة ضوء شاحب.. حث مسيره وانتزع سلاحه من كتفه وواصل اقترابه.

هو الآن في حضن السور.. يرغب في إنجاز مهمته قبل أن يأتيه التردد.. تناهى إليه صوت ضحكات، وأحاديث مسامرة، وكركرة جوزة في الليل.. هم جماعة.. تأكد أنه ليس وحده.. سوف يعرفه من رقبة الجمل عندما ينظر من النافذة "موت بموت والبادي أظلم" سمع صوته حين اقترب من النافذة.. لم يميزهم.. كانوا أربعة يسترهم الظلام.. كمن صامتًا.. نشط الهواء على مهل.. للرمال رائحة، ولماكينات الري في الليل صوت عويل.. كانوا مثل واحد فاختلط عليه الأمر.. "يختفي منى ويستر عمره بالظلال"، لكنه كان يشم رائحته، ويحس بأنفاسه في المكان.

- "زيّ ما يكون شُفت حد عند الشباك".

قالها أحدهم ونهض واقفًا مقتربًا من النافذة.. سارع واختفى في دغل الساسبان.. عاد الرجل وجلس.. تقدم منتظرًا أية نأمة لصوته.. عز عليه التمييز... سأل نفسه: ما الذي أفعله الآن؟

نهض الرجل مرة أخرى قلقًا وقال:

– "يا جماعة أنا حاسس أن فيه حد بره"

وقبل أن يجيبه أحدهم "ما تطلع تشوف مين" كان قـ د فتح بندقيته عن آخرها لتتواتر الطلقـ ـات حاصـ دة الأرواح الأربعة حيث انغدروا وماتوا صامتين، لا يعرفون مَن عجّل بفجيعتهم.. شعر بالحجرة تغرق في الـ دم والمـ ـاء، وتتبـ ـه لصوته وهو يقول "لا أعود خائبًا أبـ دًا، وعلـ ـى الثلاثـ ـة أن يدفعوا حياتهم ثمنًا لموت أبي".

الفصل الرابع

من هذا القادم يدق باب البيت؟

بعد المجزرة بأيام، ذاع صيته في الجيرة كقاتل، ولكي يعيش في خفائه أطفأ في قلبه نور الإيمان، ولبد في الجحور مثل ذئب البراري.. ليلة دراس، وفي زهـ ـوة قمـ ـر أربعـ ـة عشر، وعلى أرض الجرن جندل عمك "علي عبيد" وقـ ـبض حق روحه ألف ورقة.. وفي طريق الترب تـ ـوارى خلـ ـف شاهد وحصد روح شيخ البلد، شـ ـفاعة تشـ ـفي روح أسـ ـرة معادية.. وفي قلب فرح ابن ناظر الدايرة كمن على السـ ـطح

ملثمًا، وفي آخر الليل ختمها بعويل أم العريس، ونواح الناظر على ولده..

تواترت حكاياته من غرب الناحية لشرقها، ومن جنوبها لشمالها.

قاتل بأجرته.. يكمن هناك عند مدار الساقية الخرب متلفعًا بشال أسود من الصوف، وملتفًا بعباءة، يلبد تحت ذكر التوت، معلقًا في كتفه بندقيته، يهاجر إلى الأماكن البعيدة عن العمار.. يأتون إليه أفرادًا متوجسين، يدفعون أمامهم موت الآخرين وفناءهم، تاركين المعلوم على جدار الساقية ويغادرون.. لا يرون إلا شبحه في الظلام يطوف بالمكان، يتخفى أحيانًا بزرع الغيط، والنبات البري على الجسر، وخرائب الزرائب، يحمل في قلبه إحساس المطارد مثل من تلاحقه الذئاب، كان يوغل في اختفائه فلا يذكره الناس إلا مع صريخ أحدهم:

"قتيل يا عالم.. قتيل يا هوه".

ومع مرور الزمن، ورحيله مع النجم، والريح ومغيب الشمس حيث الأماكن الأكثر نأيًا عن البشر شعر بمن يترصده، وبدأ يسمع همسًا لأشخاص يجوبون في أماكن

اختفائه.. في ليلة رأى جياد الدورية تخب على الجسر وسمع لهاثها، وصوت الضابط يذكر اسمه.

كان وحده يمشي في الليـل علـى الجسـر شـاعرًا بسطوته، مدركًا أنه أصبح حكاية تتلى فـي قيعـان الـدور، وعلى طاولات المقاهي، وبين الرجل وامرأته علـى فـراش النوم، يتجسد في أحلامهم بشاربه المبروم، وعينه مثل عـين صقر سماوي، ومهابة ورثها عن أبيه.

وحين اشتد حصاره، وأحس بالأيدي تقترب، وسـمع صليل الأصفاد يضيق حوله، غادر الناحية، لا يعرف أحـد أين راح؟

الفصل الخامس

سنوات المتاهة

عشرون عامًا، تزيد قليلاً، أو تقل قليلاً، وأنـت تلـوذ باختفائك حكمة من ورثونا عدد السنين والحسـاب.. وأرض الله واسعة.. تزحف في جحورها الحشرة وفي قلب الحجر.. والأفعى في مكمنها، والصقر في وكره، وبالوحش الخـوّان، والحيوان الأنيس، وطير الليل الممعن في ترحاله، وابـن آدم

القادر، وقليل الحيلة، والحارس القابع في دركه بعينين مفتحتين تراقب الرائح والغادي.. وأنت أيها الهارب في دركه بعينين مفتحتين تراقب الرائح والغادي.. وأنت أيها الهارب تدور بك الدنيا من غربها لشرقها، هاربًا من قدرك، ومن أشداق البنادق المصوبة نحو قلبك مثل عين المصير.. توصل الإصغاء ولدبة القدم، وتأمل هامات الرجال، وتحسس الأصوات، وكل نهار له شمس، ولكل ليل نجوم، وعواء السنين بداخلك.. تزدحم بالشوق لزوجة تكدح، وابن في صباه، وأم غادرت الدنيا في كفن فقير، والولد يعمل بلقمته، ولقمة أمه حيث تتلصص أنت في الليالي حالكة السواد متسترًا بالظلام لتنظر إليهما من فتحة في الجدار ثم تعود لمخبئك أين يكون.

"بيقولوا قتل عشرة"

"وأنت ايش عرفك أنت يا ابن امبارح"

"روّع الجيرة وجيرة الجيرة وكل راس عنده لها سعر"

"يا ابني بطل فتاوى وروح اسأل أبوك عنه"

كنا نجلس نحن عيال المدارس تحت ضوء الكلوب في داير الناحية، على رصيف بقالة "الزوايدة" آخر الليل

الصيفي، ننتزع من تلك الأواخر الحكايات، ونتأمل صديقنا الصبي "العبد بدر" يدور حولنا وقد تقمص شخص ذلك الغائب، شابكًا في كتفه بندقية من خشب، صارخًا فينا:

"قم فز يا واد أنت وهو روّح وإلا طختكم بطلقة واحدة من سلاحي" يقول الراوي، ذلك المجهول الذي لا نراه أبدًا، لكننا نسمع رواياته أنه في السنوات الأولي لاختفائه سكن المدينة، وعشقته عالمة من العوالم، بنت أفراح وغازية.. عشقت عافيته وشاربه المبروم، وقرشه الذي جمعه من حرفة القاتل الأجير.. ولما شح المال من كده، والمائة صارت خمسين، والخمسين عشرة، والعشرة جنيهات فكة.. تحول لتابع ينتظر هناك في الأماكن الخلفية للفرح حتى تنتهي الست من نمرتها.. ضاق بحاله وهوانه.. في منتصف الليل تسحب وغادر حجرته المعزولة بجانب الجدار في حديقة العالمة.. اندس في سوق الخضار يعمل حمالاً يطارد رزقه الشحيح، حتى أشفق عليه أحد التجار فأجره عربة يعمل عليها سرّيحًا يجوب شوارع المدينة، وحين رأى رجلين من بلده يقفان على الرصيف المقابل ويشيران نحوه ويهمسان كان في الليل قد اختفى باحثًا عن أبعد مكان ليأويه.

حمل متاعه هاربًا، فوق كتفيه سنين اختفائه، وعلى رأسه شعره الذي غزاه الشيب، يرضي خاطره بفراره من إثمه القديم، ومن كل هؤلاء المترصدين له مثل قدر أحكم حوله القيد والحصار.

يلوذ بتخوم القرى المتربة والتي تبدو في كل أحوالها كأثواب بالية.. خلف قطع الخيش المنصوبة في ضواحي الونس تسفعها الريح وتضربها الشمس في الشتاء والحر.. أخصاص مهجورة من أصحابها.. مقابر ثاوية في أبدية الموت، تظهر من فتحاتها بقايا الميتين وقد نخرتها السنين، ونهشت معالمها الشمس.. بيوت على حدود المدن، بين الماء والأرض، لليل فيها نباح وعواء، وصرخات لطيور تهف بأجنحتها الظلام.

آخر مقامه فجوة في جبل المقطم "مكان آمن وبعيد، أقضي فيه الباقي من عمري، وألتقط رزقي مثل حيوان ضال".

ونظر من علوه.. كان قد اختار كهفًا مستورًا عن العين، بعيدًا عن الطريق الذاهب ناحية "الأبجية" و"الدويقة" و"منشية ناصر" والأسواق الصغيرة المزدحمة ببشر الهامش

مثل الناموس.. ورش سيارات.. ومحلات سباكه.. ونسـ ـوة يفترشن الأرض بطشاتي الجبنة، بجانبها أحمال الخضر مـ ـن كل صنف ولون.. لصوص خطافون، ونسـ ـوة مـ ـن غيـ ـر أزواج، يتامى وأرامل وناشزات.. وأزواج يمتهنـ ـون أخـ ـس المهن في زمن صعب.. عربات تجرهـ ـا حميـ ـر ضـ ـريرة، ضامرة.. تجار مخدرات يجلسون على طاولات المقاهي في استعادة وعيهم المفقود من غـ ـرزة الليـ ـل.. هنـ ـا مقـ ـامي، والزحمة ستر وغطاء..

اشتغل بالمعمار، ولما خانتـ ـه عافيتـ ـه تـ ـرك شـ ـغلته ورضي بأن يعمل "قهوجيًّا" بمقهى في السوق.. تحمل أفعـ ـال الأراذل ومذلتهم.. وصوت صاحب المقهى يأتيه ساخرًا "افهم يا بأف".. تلدغه الكلمات في دمه فيثور للحظة لكنه يسـ ـتكين مثل جرو لائذًا في صمته ووحدته.

"آخرتها يا نعمان تشتغل قهوجي"

سمع اسمه السري فتوقف، ثم خطا متجـ ـاهلاً النـ ـداء، يحمل على يده صينية الطلبـ ـات متجهًـ ـا ناحيـ ـة صـ ـاحب المطلوب.

جاءه الصوت مرة أخرى.

"نعمان المنجي أبو العزايم، اللي كانت تترج من اسمه المديرية".. التفت ناحية الصوت.. رآه يجلس هناك في الركن.. تأمل ملامحه.. شكله مثل شكل أهل الكفر.. يحمل ملامحهم وسحنهم.. يضع على كتفه عباءته وبعينه سمرة، وتحت شاربه المبروم تنام بسمة ساخرة على شفته:

"نعمان مين يا جدع؟".

قالها، وخطا ناحيته.

"تموت الرجالة واقفة ولا ترضى الدنية".

ابتلع ريقه، وشعر بدمه يسخن، ونظر ناحية الجبل.

"هو في إيه يا ابني؟"

"اقعد يا نعمان أنا من بلدك وعارفك كويس".

جلس وواصلا الهمس، وبين الرفض والقبول، دس الرجل في يده خمس رزم كل رزمة بألف، ثم انحنى للأمام يقول له:

"عاوزين خبره، بالكثير بكره".

ومضى مغادرًا المكان، وقبل أن يهبط المنحدر وقف وتطلع ناحيته وقال:

"أوعى تنسى.. بالكثير بكره.. في الليل.. احذ ا ف ي انتظارك".

استرخى هو على الكرسي.. أزاح طاقيت ه وه رش راسه.. كان يذهب رويدًا، رويدًا إلى بعيد.. إلى الماض ي.. تتابع برأسه الصور.. شعر كمن يخرج من ح ال لح ال.. يغادر مهانته، وفرار السنين.. يستعيد إحساس القاتل الأجي ر مثل حيوان مدرب لم تفارقه أبدًا وحشيته.

سمع صوت صاحب المقهى:

"قاعد على الكرسي يا بأف ولا كأنك زبون".

نهض غاضبًا متجهًا ناحيته، وزغده في صدره زغ دة ألقت به من فوق كرسيه، ومضى صاعدًا الجبل.

في حجرة الخشب والبوص، ن بش الأرض وأخ رج سلاحه القديم من رقدته.. شعر كأن البندقية في يده تس تعيد حياتها، ذلك السلاح الذي زامله سنوات عمره.. فك خزنت ه ونقعها في الجاز، وباشر تلميع الس لاح بالزي ت وقماش ة قديمة.. ألقم خزنة السلاح بالطلقات، وحين رأى لمعة السلاح شعر كأنه يتحرر من جحره.. من ف راره.. م ن س نوات كهولته.. من رائحة التراب ووحش ة الجب ل.. م ن تل ك

الأصوات المهينة، الآمرة، التي تخزه في قلبه، من أول النهار حتى هدة البدن على الحصير القديم كل ليلة.

نهض وأخرج جلبابه الكشمير من الصندوق، وشال اللبدة، والصديري الحرير بأزرار الصدف، والحذاء ذي الرقبة والكعب العالي.. حلق ذقنه وتأمل صورة الكهل في المرآة.. كان يستعيد نفسه في لحظة التتويج هذه.. "اخرج إلى الليل واستعد زمنك".. أطل من نافذة الغرفة على الجبل وأطلق رصاصة دوت في فراغ الوقت كالنذير.. كان يحس بذلك الصفاء يغمر روحه، طاردًا كل مخاوفه، وإحساسه المطارد.

في الوقت الموعود غادر وكره متجهًا للمكان المتفق عليه.. هناك عند تخوم قريته، عبر الطرق التي قطعها شابًّا صغيرًا ليأخذ ثأر أبيه اختفى الخلاء ووشمت الأرض بالبيوت.. يلوح البيت الذي سوف يطفئ أنواره.

خرج من دغل الشجر، واستعد يضغط سلاحه.. كانت بنادق أخرى هناك تكمن في انتظاره.. أسلحة لها ثارات قديمة من سنوات.. خطا وقد أحس بالفخ وبأنفاس الرجال،

وقبل أن يستدير انهمرت رصاصات الآخرين مدوية من كل صوب.

تيقن للحظة، ومن بين وعيه الأخير، ومن خلال ألمه، وهو ينظر ظلال الشجر وهي تختفي من أمام عينه، أن أشباهه من البشر لابد أن يؤخذوا على غرة.. سقط على ركبتيه أول الأمر، وسمع آهة تخرج من حلقه.. أخذته رعدة، ودهشة عندما خانته ذراعه، ومن خلال الضباب الذي بدأ يغمر المشهد أمامه همس لروحه "لأن كل هذا يليق بقاتل أجير".. غامت عينه وقد امتلأت بالحزن، وطلب الغفران، لكن الآخرين لم يرحموه وواصلوا رجمه بالرصاصات، وحين اقتربوا منه حذرين وجدوه ينتفض ثم يهدأ، لكنه كان ينتزع من قلب الليل مشهدًا من نهاره القديم.. من زمن طفولته حيث رأى نفسه بالقرب من قنطرة الخشب المقامة على نهر بلدهم.. كان يحاول عبورها إلى الضفة الأخرى، حين لاح له أبوه يستدعيه من الضفة الأخرى، مشيرًا ناحيته لكنه كان مثل جذع تالف، متأملاً والده يمشي على الماء مجللاً ببياضه.

فصل الختام

عودة

في الصباح كانت البلد على الصفين.. رجال ونساء وأطفال وكلاب محومة، نابحة.. الابن الحفيد يقود عربة يجرها حمار هزيل، قادمة من بعيد.. يسير الابن الحفيد بجوار العربة التي تختط مسارها بين الرجال والنساء والأطفال والكلاب النابحة.. وحين تأمل الجمع حِمل العربة صمتوا. كان الحِمل رجلاً من زمان قديم اخترقته الرصاصات تاركة على بدنه دوائر من الدم، يقوده حمار أعجف، وابن لم يره أبدًا، يدبان على الأرض في الخلاء الرحب حيث مثواه الأخير.

متعهد سرادقات العزاء

الآن وقد وصلت إلى مرافئ سكينتك تطاردك كل صباح نتف من ذكريات الأخيار، طيبي القلب، أصحاب الوازع الحسن، وتدرك بقلب اطمأن أخيرًا إلى أن الباقي في شح كف الماء، وتنتظر من خلال الستارة أفضل الساعات، وأصفاها، حيث الصباح يأتي بالهواء النظيف، معلنًا عن صبية صغار يدرجون على الطريق في اتجاه المدينة.

تنهض متكئًا على ظهر الكرسي، وتنتظر من النافذة، تأخذك الأشياء إلى بعيد حيث ترى بداخلك ما لا يراه غيرك، لتبدأ من حيث انتهيت أمس، والأيام في كل أحوالها دوّارة، من صرخة الميلاد إلى خط الزوال.

الآن، كلهم رحلوا، وغابت شموسهم، الأم والبنتان، وآخر أولادك قضى نحبه في البلاد الغريبة، حتى لحده لا يعرف في أي مقام يقام.. كأنك تعيش زمنين.. زمن ينتزع روحك، وزمن يستطيل فيه الليل ويمتد مزدحمًا بالصور والخيالات، وزفرات الكهل الأخيرة المزحومة بالأشخاص الذين تعرفهم، حيث يتجلون بكامل وجودهم في السكون، فلا

تكون وحدتك وحدة الكائن لكنها تتحول إلى ضرب من الشوق الذي يشع بالضنى والمستحيل.

من سنوات سألت نفسك بعد أن أضناك الألم: كيف تنقذ روحك مما هي فيه؟.. كيف تستعيد نفسك من سطوة هؤلاء الذين سكنوا مراقدهم والذين كنت إله لهم؟.. هؤلاء الذين سلكوا الممرات، ودرجوا على الأرض وأياديهم معلقة في يدك حيث نظروا، وتعلموا، ومارسوا الغناء بصوت حسن؟.. كيف وأنت ينقبض قلبك مثل يتيم صغير يجلس على قارعة طريق؟

قرأت فأفضى بك المتن إلى الحزن.. سكرت فانتهى أمرك إلى متاهة اختلطت فيها الصور بالبياض وبهجة الألوان والدموع.. عشقت فكانت المرأة عذابك المضني.. سمعت الموسيقى الإلهية فخفت أن يطير منك العقل وتصبح أحد المهابيل.

وسحبتْ الأربعين الخمسين ليستقرا هناك على شاطئ منتصف الستين، أنت المقيم هناك في ضاحية "الزيتون"، تسمع جلجلة القطارات في الليل، وتشعر بنفثة برد الخريف أيها الشيخ الطاعن في العمر محاولاً طوال الوقت فهم الأيام،

محصيًا عدد السنين، مراقبًا الخطو على السكك، وتغير الملامح على الوجوه، ومصغيًا لحلاوة الترتيل في سرادقات العزاء، والأصوات تأتيك عبر الهاتف لأشخاص عبروا قبل الأوان وأصبحوا غير قابلين للاحتمال برغم وجودهم في الأوهام المجردة – أوهامك – والتي كثيرًا ما تشع بالضجر غير المحدود.

كان عليك أن تخرج مما أنت فيه.. تغادر جنونك.. وتكف عن السؤال: من بمكنته الهرب من إحساسه بالأبدية؟.. جنونك أن تعيش اليوم مثل ما عشته بالأمس.. تبدو الطرقات في الليل شبيهة بالمدينة الخالية، التي تسكنها الريح، وينتهي بك مآلك متخبطًا في ظلامك، وأنت تدرك بوعيك المرتجف أن حفنة الأصدقاء قد ضاقوا بك وبأوهامك، وأن لحظة حلولك في المكان هي لحظة فراقهم.. عما كنت تبحث تلك الأيام؟..

اليقين؟.. حائط تسند إليه ظهرك؟.. غواية الحزن مثل ماء البحيرة العميق، وأنت تغطس رويدًا رويدًا فترهب أن تختنق فتخرج من العمق باحثًا عن لقفة نفس فترى على الشاطئ مرجًا وطيرًا وغديرًا وبرجًا للحمام ونارًا صغيرة

مقدسة تنبض بحياتها ونورها الذي لا يخبو فتتشبث بحياتك مرة ومرة.

قرى من الطين، وطرق يرصفها التراب، وأغنيات تنبع من اللامكان.. لا أحد هناك يستدعيك والأهل القدامى بين ميت وحي شغلتهم الدنيا، ولم يعد أحد في حاجة إليك، وكلهم يديرون لك الظهر، ويتركونك باعتبارك غير موجود، تعيش مع خيالك وتمعن النظر في داخلك.

خشخشة أوراق الكتب، والأسفار القديمة الصفراء، وأسرار الكتابة التي لا تنفتح إلا على سرها، وأنت في كل أحوالك تهرب من حاضرك إلى ماضيك عبر صفحات الكتب الوثنية، أيها الجالس في شرفة دارك تطل على كنيسة العذراء المقدسة، وتسمع في أمسيات الآحاد صلصلة الأجراس، وصوت الترانيم يعلو ببهجة النصوص، وسير الرسل، وصوت بكاء يعلو لشيوخ ضربهم الفزع عندما سمعوا ذلك الذي يتلو: إن من كان على حافة الموت يجذبه التراب.

بعد سنين من الضنى وجدت الخلاص في سرادقات العزاء.

سرادقات العزاء؟!

نعم.

تلك المقامة هناك في نصبتها الأزلية بتجلياتها بجوار الجوامع، أو في فضاء الأرض تحت السماء، أو الميادين الجانبية في المدينة، أو في حضن دور المناسبات، المحاطة بأشجار الورد، والشتلات المزهرة مثل الجنة، والمبنية على الطرز الشرقية، بعقودها، ونقوش الأهلة والعرائس، وكتابة الآيات بخط النسخ وخط الرقعة والخط الكوفي، والملونة واجهاتها بالأخضر الفردوسي، وقاعاتها المزدحمة بأعمدة الرخام، وجدرانها المزينة بالجص والنقش وحكايات الأولين والسرادقات مقامة بقماش خيام الرحيل، منقوشة بالزخارف الملونة، والعرائس مفتوحة الأذرع في ابتهاج الأطفال الطيبين، ودوائر الآيات عن المتقين، المنتظرين لفردوس الله، وأعمدتها تحملها في صبر السنين، في أبوة مثل أبوتك أيها الطاعن في السن.

كنت تظن أن لا خلاص لك.. عثرت عليه صدفة في سرادقات العزاء، يوم استدعاك صوت الترتيل فدخلت إلى الممرات المفروشة بالبسط ورأيت الكراسي العامرة يجلس

عليها هؤلاء الذين لا تعرف من أين يأتون، وأفعمت روحك رائحة القهوة، وصوت الترتيل ينبع من الجنة بصوت الرب العليم، ينطلق سابحًا حيث وجه الله في السماء البعيدة التي تخفق نجومها فوق مدينة تؤجل مصائبها إلى يوم الدين.

أحصيت دور المناسبات في المدينة، عبر متوالية مكتوبة ومحفوظة في ورقك السري، وعرفت مسالك الطرق إليها، من "المعادي" حتى "عين شمس"، ومن ميدان "السباق" بالهرم، وحتى دار المناسبات في "رابعة العدوية" في الضاحية البعيدة.

أدركت أن الحصول على سلوى، يشفي الروح، وأن البحث عن صلة بالإنسان لا يتم حقيقة إلا عبر سرادقات العزاء المنصوبة على عجل، والمزالة على عجل، حيث تراهم في النهار يقيمون الأعمدة ويكسوها بالقماش، ويركّبون بداخلها الكهارب في انتظار الذين يخرجون من بيوتهم نظيفي الثياب، تدفعهم طمأنينة عمل الواجب، والنظر إلى باب قيامتهم.

تفتح جريدتك الصباحية على صفحة الراحلين.. تقرأ بانتباه المنتظرين رحمة السماء، وتختار المنطقة التي سوف تذهب إليها بشوق لقاء الأحبة.

دقات ساعة البرج في الليل تقاوم صمت الحي الذي ينحدر نحو غفوته.. ثمة بهجة تشع من هناك، ترتعش وأنت تقلب صفحة الراحلين.. تختار هؤلاء الذين كان موتهم عجبًا وانقضوا في المكان والزمان، وانتهت ريحهم من الفصول التي درجوا فيها على جسد أمهم الأرض.

أنت أيها الكهل كليل النظر تضع على عينيك نظارة بإطار مستدير على طراز قديم بالٍ، وتمر بعينيك على صفحات الجريدة باحثًا عن: البقاء لله، والنفس المطمئنة، والصبر والسلوان، ولهؤلاء طوبى لهم الذين أسلموا للمسيح أرواحهم وكان ذلك أفضل جدًّا الانتقال من الأرض إلى الأمجاد السماوية حيث أعراسها ومعاشها المقيم مع القديسين والشهداء.. تفتش عن العناوين وأمكنة العزاء متنبه الحواس تفحص الأشياء حواليك، وتتأمل الصور على الحائط، وتشم رائحة مقدم الليل، وتشعر بجريان الزمن من حولك، مخفيًا مالا يرى، وتدرك أن المسنين أصحاب الأرواح العتيقة

يعطون في وجل ما تبقى من أعمارهم إلى تلك الأمكنة التي تصلهم بألفة من رحلوا قبل أوانهم.

تتذكر؟!.. أم تبدو تلك الأشياء موغلة في القدم؟!.. صديقك وأستاذك معلم التاريخ الذي كان يفرض عليك الشعر، والذي رافقك فترة وظيفتك في وزارة التربية والتعليم والذي كان يجلس قبالتك في الزاوية القريبة من البيت قبل أن يرحل، وكنت تتأمله وقد بلغ من العمر الثمانين، نحيلاً، وبارز العظام، مرتديًا آخر عمره عمامة على ثوب أبيض، وقد ترك لحيته فبدا أمامك مثل أولياء الله، وكان يهمس لك "الحياة ثوب ضيق، والإنسان لا يشعر بحريته إلا بعد أن تغادر روحه هذا الثوب" ثم يبتسم وينظر في عينيك كل مرة ثم يطرق برأسه ويغيب.

تمعن في قراءة الصفحة، وتبحث عن عزاء يليق.. "آل خلوصي وآل شنن" وتعرف أن سرادق عزائهم سوف يكون بالمقطم البعيد بجوار دار مناسبات "أم المؤمنين".

تتهيأ.

سوف تصعد الجبل الليلة.. سيحتاج الأمر إلى تاكسي، وغرامة مالية..لا مانع.. لا أحد يقدر الوفاء بالنذر.. أنت

على موعد.. والموعد دين عليك.. دين لروحك المعذبة.. سرادق العزاء مكان لتحقيق الأحلام، وإنقاذ لك من زحمة المدينة، وقلق النفس، والوحدة المقيمة معك بين جدران بيت يزدحم طوال الوقت بالأصوات الخفية.. ستصعد عبر هذا المنحنى الذي يتلوى مثل ثعبان، والذي يرهق روحك قليلاً وسرعان ما تألف الصعود فيه.. الجبل.. السير زمان عند قمته يثلج صدرك بنثار مطر خفيف يتناثر في حزن.. كم جلست فوقه وحدك تتأمل مدينة تأتلف مع مواتها بالليل، وتمعن النظر في السكون المنطوي على الأسرار فادح الاعتداء كل يوم على أماكن كنت تحبها، وأنت حتى هذه اللحظة لا تدرك سبب هواك في الصعود للجبل لتجلس هناك على قمة الهضبة على مقعد خالٍ في ذلك المشرب القديم، المظلل بأشجار اللبلاب والياسمين الذي يفوح عطره.. هل كنت تسعى حتى يمكنك رؤية الأشياء بوضوح؟!.. أي الأشياء تريد أن تراها في زحمة كل هذه الأشياء؟!.. ساعات طويلة وأنت تقلب الوجوه، وتسأل في إصرار مجنون، وتتفرس الملامح وتعيد ترتيب الأيام المنقضية.. كأنك مثل

شخصيات متعددة تحلم جميعها في نفس الوقت، لكل شخصية أحلامها، وأنت في جلستك المتفرج الوحيد.

انتظر ولا تندفع باحثًا عن حتفك.. قادم قادم.. مثلما قدم في كل حياة سابقة.. يستدعي الأرواح، ويتسلل عبر سرادقات العزاء، كأنه الشكل الأمثل للحقيقة المجردة، العارية.. وأنت ليس في مقدورك أن تنسى.. انهض.. رتب متاعك، وابحث عن تتويج ذاتك لهذه المناسبة بمكانك بالقرب من كنيسة العذراء بالزيتون.. أخرج بذلتك الزرقاء العتيقة، وربطة عنقك السوداء الرفيعة وقميصك الأبيض بياقته التي تشبه الجرادة.. راقب أشياءك النظيفة التي تفوح منها رائحة النفتالين، ويمتقع لونها الكابي تحت الثريا النحاس بضوء شمعاتها المدببة تحت السقف الخشبي.. العزاء هو إحساسك بأن تقبض على لحظة من الوصال، ووقت من أفراح مفتقدة.

تقف الآن أمام المرآة.. ترتدي قميصك على بدنك النحيل، ثم تدخل في بنطلونك، وتعقد ربطة العنق.. ترتدي أخيرًا الجاكتة ثم تتأمل نفسك مليًّا، وتكون طاهرًا بعد الوضوء.. تنظر للذي يواجهك في المرآة، وتبتسم، ثم تهمس له: أنت لن تكون أكثر رضا عن نفسك من الآن.

تخطو خارجًا من الباب مغادرًا، وتسير ملقيًا بالـ دور خلف ظهرك، وتغوص في زحمة السـ وق العـ امرة حيـ ث تضيء بضاعتها الكهارب التي تهمس بصـ وت ينفـ ذ إلـ ى قلبك.. يحفر الليل في صدرك طرقًا للحنين، وأنـ ت تمخـ ر عباب الأزقة القديمة، وأشجار الكافور عاليـ ة، والأصـ وات تتداخل على باب البيع والشراء.

ينقلك التاكسي عابرًا مصر الجديدة، ثم مدينة نصـ ر، مخلفًا منشية ناصر البائسة، صاعدًا بك إلـ ى الجبـ ل خـ يّم الصمت عليك، واستقر وجود الليل حولك، ولم تعد تـ رى إلا أضواء سيارات هابطة من منزل الجبل.. تصـ عد يؤاخيـ لك صراخ طائر ليلي فتشعر ببرد الخلاء فيرتعش بدنك.

السرادق مضاء بمصابيح كبيرة تستقبلك في وهجهـ ا، وأنت تهبط الدرجات حيث صفوف الكراسي، وعلى البـ اب تقف عائلة "آل خلوصـ ي وشـ نن" مـ ن هـ ؤلاء؟.. أنـ ت لا تعرفهم.. لا يهم.. المهم القبض على اللحظة، والجلـ وس بين ما أنت فيه وبين حلمك.. إقامة هذا الجسر غير المرئـ ي بين الحياة والعدم.. يقابلك صف المستقبلين فاردين أكفهم في استقبال عزائك.. تمد يدك.. عظـ م الله أجـ رك.. شـ كر الله

سعيك.. همسات هامسة وعيون أضناها البكـاء وأصـوات تحمل في رنينها واجب العزاء.

تنظر إلى السرادق.. من كل هؤلاء؟!.. لا يهم.. تقدم وتخير مقعدك.. لابد أن يكون آخر الصفوف.. خلفك قمـاش السرادق المنقوش بما تحب.. الآيات واسم الله، والنبي محمد، وفراشة فلان، والبقاء لله.. يبدأ الترتيل صاعدًا بالآيات مـن المكبر حتى فضاء الجبل.. صدى الصوت الجميل ترجيع لما تحسه في قلبك.. شبه إجابة مستحيلة عن معنى دورانك باحثًا عن صلة بزمان غارب.. أنت تعي ذاتك.. حقيقـة؟.. أم أن حتى هذه لا تدرك ما بداخلها.. تبحث عن ونـس؟!.. عـن ونس بين الموتى؟!.. اركض.. اركض.. صـوت الـتلاوة يحملك إلى شطآن الحلم وأنت متيقظ.. يشـرق قلبـك بلـذة المشهد، لا بسبب ما تراه، وإن كان عجبًا، ولكن بسبب مـا يجوس في روحك من معنى يبتهج مـن نـور الكهـارب؟ وهمهمة المعزين، وصوت المقرئ الجميل، وأنـت تتأمـل وكأنك تنظر بعين الله.

أي لحظة تماوج النور أمام عينـك؟.. هـل أصـبح السرادق بلا معالم؟.. اختلط اللون بالنور، وشـارفت علـى

أرض من نعيم، ينبع منها الماء ويسيل على مرج أخضر تحط على أرضه الطيور، وغدا الأحمر المنقوش مثل لوحة لا يراها إلا من غفي.. هل غفوت؟.. هل كنت تسبح في الضوء فخدعك؟.. أم كنت قبضت على لحظة يقينك عندما رأيت زوجتك وبنتيك وابنك طفلاً تحمله على صدرها يحفهم جلال القراءات داخلين من باب السرادق، هابطين من الجبل.. كأنك أمسكت بأسباب الضنى والوحدة، وأنت ترى غير المرئي في المرئي، والحلم في الحقيقة.. كأنها اللحظة التي تطل على عالم أكثر اكتمالاً، بعد أن عشت في الوهم وجعلته الحقيقة المجردة.

انهض.. قالها آخر الحاضرين، فانتبهت.. كان قلبك قد امتلأ حياة، وحين خرجت من السرادق وحيدًا تخطو على الجبل سمعت بين الخضرة بكاء طفل وليد.